

الْأَلَامُ مِنَ الْأَدَبِ وَالشِّعْرِ

مكتبة لسان العرب
www.lisanarab.com



الصلحي بن عباد

الوزير الأديب

إعداد

الشيخ كامل محمد محمد عورضة

دار الكتب العلمية

بيروت - لبنان

جَمِيعُ الْحَقُوقِ مَحْفوظَةٌ
لِبَلْدَارِ الْكِتَبِ وَالْعِلْمِيَّةِ
بَيْرُوت - لِبَنَان

الطبعة الأولى
١٤١٤هـ - ١٩٩٤م.

بَلْدَارِ الْكِتَبِ وَالْعِلْمِيَّةِ بَيْرُوت - لِبَنَان

ص.ب: ١١/٩٤٤٤ - تَنَكِس: Le - نَكِس: 41245 Nasher

هَافَّت: ٣٦٦١٣٥ - ٦٠٢١٢٢ - ٨٦٨٠٥١ - ٨١٥٥٧٣

فَاكس: ٤٧٨١٢٧٣ - ١٢١٤/٤٧٨١٢٧٣ - ٩٦١١/٦٠٢١٢٢

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مقدمة

الناظر في مأثور العرب في العصر الجاهلي يجد أن كلمة «أدب» ومادتها في استعمالات القوم نادرة، وهي مع هذه الندرة . فيما وصلنا . لم تكن تستعمل بالمفهوم التعبيري الذي نعرفه اليوم؛ فقد اجتازت في هذا السبيل أطواراً انتقلت فيها من معنى إلى معنى، شأن كلمات اللغة دائمًا.

ولعل من أقدم استعمالات مادة «أدب» ما روي على لسان طرفة بن العبد المتفق عليه سنة ٥٦٩:

نحن في المشتاة ندعوا الجفل^(١) لاترى الأدب منا ينتصر
فالأدب هنا: الداعي إلى الطعام، فقال: أدب يأدب أدباً . من باب ضرب . دعا إلى الطعام. فالأدب . بسكون الدال . الدعاء إلى الطعام.

ثم ما روي على لسان أعشى قيس، وهو شاعر محضرم:

(١) انظر القصيدة (٤٦) من ديوان طرفة، طبعة الوارد. والمشتاة: الشتاء، والدعوة الجفل: الدعوة العامة، والأدب: الداعي إلى الطعام، والانتصار: اختيار أناس دون أناس، فالدعوة التي تقابل الدعوة الجفل.

جرروا على أدب مني بلا نزق ولا إذا شمرت حرب بأغمار^(١)

وما جاء في حديث عتبة بن ربيعة مع ابنته هند، يصف أنها سفيان بن حرب حين خطبها قبل الإسلام: «يؤدب أهله ولا يؤدبونه» وما جاء في ردّها عليه: «وسأخذه بأدب البعل مع لزوم قبني وقلة تلقني»^(٢).

يشير إلى أن الكلمة انتقلت من المعنى الحسي السابق إلى المعنى الخلقي، وقد يكون استعمالها في المعنين دون ترتيب، ولكن لم يصلنا ما يدل على ذلك.

حتى إذا جاء الإسلام استعملت الكلمة في الدلالة على المعنى التعليمي، مثال ذلك ما روي أن رسول الله ﷺ كان يخاطب وفود العرب على اختلاف لهجاتهم، فيفهمونهم ويفهمهم، فقال له علي كرم الله وجهه: يا رسول الله نحن بنو أب واحد، وزراك تكلم الوفود بما لا نفهم أكثره، فقال رسول الله ﷺ: «أذهبني ربتي فأحسن نأدبي»^(٣). ومثاله كذلك ما جاء في قول كعب بن سعد الفنوي المتوفى في السنة العاشرة قبل الهجرة: حبيب إلى الزوار غشيان بيته جميل الصحبا شب وهو أدب

ثم اطرد استعمالها في العصر الأموي بهذه المعاني الثلاثة، وكثر استعمالها في الدلالة على ما كان يلقيه المعلم إلى طلبه من الشر

(١) هذا البيت من قصيدة مشهورة تختلف روایتها بالزيادة والقصص، والتقدم والتأخير في الأغاني ج: ٨، ص: ٧٩، ومجمل الأمثال ج: ٢ ص: ٢٢٦، وشمراء الجاهلية من ٣٦١، والشعر والشعراء ج: ١ ص: ٢٦١، ٢٦٢ بتحقيق شاكر.

(٢) الأمالي ج: ٢ ص: ١٠٤.

(٣) النهاية في غريب الحديث والأثر لابن الأثير ج: ١ ص: ٣ طبع القاهرة سنة ١٣١١هـ.

والقصص، والأخبار والأنساب، وكل ما يهذب النفس وينقيها من مختلف العلوم والمعارف، ومن ثم نشأت مهنة جديدة لجماعة من الناس أطلق عليهم (الشُّوَدِّيون)، وهم أولئك المتميرون في العلم والأدب، فكانوا موضع ثقة الخلفاء والأمراء فسعوا إليهم لتأديب أبنائهم وتهذيبهم، وتلقينهم المأثور من ألوان التعبير، وأخذوا مستهم بشفاف اللغة على اختلاف اتجاهاتها وفنونها.

ومن ثم اتسع مدلول كلمة أدب ومشتقاتها، وأصبحت شاملة كل ما يتحقق للإنسان العلم والثقافة من معارف، وعلوم، ورواية شعر ونثر؛ وظلت على هذا النحو يتسع مدلولها ويفسيق وفقاً لمقام استعمالها حتى إذا كان العصر العباسي، ونمط الحضارة العربية، وازدهرت النهضة العلمية، وقويت حركة التأليف والترجمة، أخذ كل لون في الاستقلال بنفسه عن الأدب، فأصبحت كلمة أدب تدل على التعبير الكلامي الجيد. شرعاً أو ثرداً . وما يدور في فلكه من شريح وتعليق ونقد. وأصبحت كلمة أدب تدل على كل من يعالج فن التعبير الكلامي قولاً أو نقداً أو شرحاً، ولم تعد تشمل عالم البلاغة أو النحو أو أصول اللغة كما كان.

بيد أن مادة «أدب» كانت تتعلق في بعض الأحيان . مع هذا التخصص . على المعنى العام الشامل لكل ألوان الثقافة ومظاهرها، فقد روي عن الحسن بن سهل الوزير العباسي المتوفى سنة ٢٣٦ هـ أنه قال: «الأدب عشرة، ثلاثة شهرجانية، وثلاثة أنوشنروانية، وثلاثة عربية، وواحدة أربت عليهن، فاما الشهرجانية فضرب العود ولعب الشطرنج، ولعب الصواليج، وأما الأنوشنروانية فالطب والهندسة والفروسية، وأما العربية

فالشعر والنسب وأيام الناس، وأما الواحدة التي أربت عليهم فمقطوعات الحديث والسرور وما يتلقأه الناس بينهم من المجالس^(١). وبهذا المدلول العام استعمل الكلمة لـ«إخوان الصفا»، وعيروا بها عن مختلف العلوم والمعارف في رسائلهم^(٢)، وذكر ابن خلدون أنهم إذا أرادوا تعريف الأدب قالوا: «الأدب هو حفظ أشعار العرب وأخبارهم والأخذ من علم بعلف»^(٣).

وما زال هذان السبيان يتنازعان الكلمة إلى عصرنا الحديث، فنارة شتعل للدلالة على كل ما يحقق الثقافة للإنسان وتهذب عقله وشحوره ولسانه، وأخرى تؤاد بها الكلام الجيد الذي يعبر به صاحبه عنما يجس ويرى شرعاً كان أو نثراً.

وهذه سيرة علم كبير من أعلام التاريخ في القرن الرابع الهجري وهو: «الصاحب ابن عباد» وفي عصره انقسمت الدولة الكبيرة المترامية الأطراف إلى أجزاء ولي إمارات أو دوبيلات، بعد دولة واحدة كانت تجمع شمال العرب، وترفع راية الإسلام، وتتحذّل لها قاعدة واحدة في مدينته الرسول عليه السلام، ثم في دمشق في بلاد الشام ثم في دار السلام في أرض العراق.

(١) الشهر جانية: نسبة إلى الشهاريج أو الشهارجة، وهم أشراف الفرس، والأئمـةـروـانـيـةـ: نسبة إلى كسرى أبو شروان ملك الفرس من سنة ٥٣١ مـ٥٧٩ـ. انظر زهر الأـدـابـ للمـصـريـ جـ١ـ صـ٦٤ـ بـتـحـقـيقـ الشـيـخـ سـعـیدـ سـعـیـ الدـینـ الطـبـعـةـ الثـالـثـةـ ١٢٧٢ـ ١٩٥٣ـ مـ.

(٢) انظر رسالة السابعة من القسم الرياضي من رسائل إخوان الصفا.

(٣) مقدمة ابن خلدون صـ٤٩٠ـ طـبعـ كـتابـ التـحرـيرـ بمـصـرـ سنةـ ١٣٨٦ـ مـ.

قال ابن الأثير في حوادث سنة ٢٨٥هـ، في هذه السنة مات الصاحب أبو القاسم إسماعيل بن عباد وزير فخر الدولة بالري، وكان واحد زمانه علماً وفضلاً وتدبرأً وجودة رأي وكرماً، عالماً بأنواع العلوم، عارفاً بالكتابة ومواردها، ورسائله مشهورة مدونة، وجمع من الكتب ما لم يجمعه غيره، حتى أنه كان يحتاج في نقلها إلى أربعينات جمل.

ولئن حضره الموت قال لفخر الدولة: قد خدمتك خدمة استفرغت فيها وسعي، وسرت سيرة جلبت لك حسن الذكر، فإن أجريت الأمور على ما كانت عليه نسب ذلك الجميل إليك وتركت أنا، وإن عدلت عنه كنت أنا المشكور ونسبت الطريقة الثانية إليك، وقدح ذلك في دولتك، فكان هذا نصحه له إلى أن مات^(١).

وذكر الثعالبي في البيهقي أن الصاحب لما بلغت سنه الستين اعترته آفة الكمال، وانتابه أعراض الكبر، جعل ينشد قوله:

anax shib zifia l'm arde ولكن لا أطيق له مردا
rada l'srada fihi dleel تردى من به يوماً تردى
w wajd fi biss aya'm mرضته التي توفي فيها خففة، فأذن للناس، وحل وعقد، وأمر ونهى، وأملأ كعباً تعجب الحاضرون من حسنها وفرط بلاغتها، وقال:

كلامنا من غرر وعيشنا من غريب^(٢)

(١) الكامل لابن الأثير ٢٨٩.

(٢) الغرر: بعض قفتح . المحسن، ويفتحين الخطر.

إني وحق خالقى على جناح السفر

ثم لما كانت ليلة الجمعة الرابع والعشرين من صفر سنة خمس وثمانين وثلاثمائة انتقل إلى جوار ربه، ومحل عفوه وكرامته، ومضى من الدنيا بمضي رونق حسنها، وتاريخ فضلها^(١).

وكانت وفاة الصاحب بالرئي، ثم نقل إلى أصبهان، ودُفِنَ في قبة بمحلة تعرف بباب ذريه، قال ابن خلkan^(٢): « وهي عامرة إلى الآن، وأولاد بنته يتعاهدونها بالتبذيب»^(٣).

وكانت وفاة الصاحب مظهراً فائقاً رائعاً لما كان له من رفيع المنزلة في قلوب رجال الدولة وعامة الشعب، وقد أطلقت وفاة الصاحب ألسنة شعراء العصر، فكثرت مقالاته، وطالت وجادت، ووُجِدَ الشاعر في عظمة الصاحب وشخصيته، وفي مروءته وساحتها، وفي شعره وكتابته، وفي تدبيره وسياساته، وفي تقواه وعفته، معيناً لا ينضب من المعاني المتزاحمة مما، جعلت مرجعيتهم فيه من خرائد الشعر المصنونة، ومن نماذجه العالية.

وقد وضّحنا للقارئ أسباب شتم التوحيد للصاحب، وبينا ذلك في صفحات طويلة، وأظهرنا أسباب حقده على الصاحب، وبيننا أنه حاول أن يتزعزع من قلوب الناس، وعقلهم ما وقر عندهم من فضل الصاحب، وما

(١) بقية الدهر ٢٧٩/٢.

(٢) وفيات الأعيان ٢٧٧/٢.

(٣) توفي القاضي شمس الدين أحمد بن خلkan سنة ٦٨١هـ، أي بعد وفاة الصاحب ب نحو ثلاثة عشر عام.

عرفوه من علمه و سياسته وأدبه، وكأنه مسلط لاستخراج مجازيه، وإذاعة مساوبيه، فكتب تلك الرسائل الطويلة التي بث فيها سموه بالقديح والثلب الذي افتئن في إبرازه افتئان الكاتب الصناع، والمصور الماهر، بدرجة تنتزع الإعجاب، وما يبني أن يكون بين أهل العلم والمعرفة من التواصل والتقدير.

وكما سنبيّن فيما بعد، أبو حيان يذكر لحملاته على الصاحب أسباباً، وكل هذه الأسباب تكشف عن حقيـد دفين كان صدـى لما أحـسـنـ بهـ منـ الحرـمانـ، وسوـءـ التـقـديرـ، وخـيـبةـ التـأـمـيلـ.

وإنه لا يفوتنا أن نتـؤـ أنـ التـوحـيدـيـ كانـ مـنـفـئـاـ فيـ جـمـيعـ الـعـلـومـ منـ التـحـوـلـ وـالـلـغـةـ وـالـشـعـرـ وـالـأـدـبـ وـالـفـقـهـ وـالـكـلـامـ عـلـىـ رـأـيـ المـعـزـلـةـ، وـكـانـ جـاحـظـاـ يـسـلـكـ فـيـ تـصـانـيفـهـ مـسـلـكـهـ، وـيـشـتـهـيـ أـنـ يـتـظـلـمـ فـيـ سـلـكـهـ فـهـ شـيـخـ فـيـ الصـوـفـيـةـ، وـفـيـ لـسـوـفـ فـيـ الـأـدـبـاءـ، وـأـدـبـ فـيـ الـفـلـاسـفـةـ، وـمـحـقـقـ فـيـ الـكـلـامـ، وـمـتـكـلـمـ فـيـ الـحـقـيقـينـ^(١)، وـلـكـهـ كـانـ. كـمـ يـقـولـ يـاقـوتـ . سـخـيفـ الـلـسـانـ، قـلـيلـ الـرـضاـ عـنـ الـإـسـاءـ إـلـيـهـ وـالـإـحـسـانـ، الدـمـ شـائـنـ، وـالـثـلـبـ دـكـانـ، وـهـوـ مـعـ ذـلـكـ فـرـدـ الـدـنـيـاـ الـذـيـ لـاـ نـظـيرـ لـهـ ذـكـاءـ وـفـطـنةـ، وـفـصـاحـةـ وـمـكـنـةـ، كـثـيرـ التـحـصـيلـ لـلـعـلـومـ فـيـ كـلـ فـنـ حـفـظـهـ، وـاسـعـ الـدـرـاـةـ وـالـرـوـاـيـةـ.

وـكـانـ مـعـ ذـلـكـ مـحـدـودـاـ مـحـارـفـاـ^(١) يـتـشـكـيـ صـرـفـ زـمـانـهـ، وـيـكـيـ فـيـ

(١) وبـعـدهـ بـعـضـ الـعـلـمـاءـ زـلـديـقاـ، قـالـ ابنـ الجـوزـيـ: زـنـادـقـةـ الـإـسـلـامـ ثـلـاثـةـ: ابنـ الـراـونـدـيـ، وـأـبـوـ الـعـلـاءـ الـعـرـيـ، وـأـبـوـ حـيـانـ التـوـحـيدـيـ. قـالـ: وـشـرـمـمـ عـلـىـ الـإـسـلـامـ التـوـحـيدـيـ، لـأـنـهـماـ صـرـحـاـ وـلـمـ يـصـرـحـ.

تصانيفه على حرمانه، قال ياقوت: لم أر أحداً من أهل العلم ذكره في كتاب، ولا دمجه في ضمن خطاب، وهذا من العجب العجاب.

ولعل السبب في هذا الإغفال الذي يشير إليه ياقوت ما رمي به أبو حيان من الرندة، والإلحاد فتهيب الناس ذكره، كما حاروا في أمره، فقد صرّح أصحابه . المعربي وابن الرواundi . برأيهما فقال فيهما من شاء ما شاء، أمّا هو فكما يظهر من كلام ابن الجوزي كان يخلط المسئ بالشهد، ويختفي طوبية نفسه، وحقيقة معتقده . وعلى كل حال ليس المجال هنا مجال البحث في عقيدة أبي حيان، أو الاطمئنان إلى صحة اعتقاده.

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

وكتبه،

كامل محمد محمد عزيزية

جمهورية مصر، المنصورة

عزبة الشال ش

جامع نصر الإسلام



الصاحب ابن عباد

(٢٢٦ - ٢٤٨٥ هـ)

١- نسبة:

هو أبو القاسم إسماعيل أبي الحسن عباد بن العباس بن عباد بن
أحمد ابن أدریس الطالقاني^(١):

وكان أبوه عباد يُكنى بأبي الحسن، ويلقب الأمين، قال أبو حيان
التوحیدي في: «أخلاق الوزيرين» إنه كان خيراً، مقدماً في صناعة الكتابة،
وكان الأمين ينصر مذهب الأشناوي تدريباً، وطلباً للزلفي عند ربه، وكان
قبل ذلك معلماً بقرية من قرى طالقان الدبلم، ثم كان من أهل العلم
والفضل سمع أبا خليفة الفضل بن الخطاب وغيره من علماء بغداد
وأصفهان والرثي وصنف كتاباً في أحكام القرآن نصر فيه الاعتزاز وجود
فيه، وروى عنه جماعة في مقدمتهم ابنة الوزير أبو القاسم بن عباد وابن

(١) طالقان . يفتح الطاء واللام . كما ذكر ابن حلkan في «وفيات الأعيان» ٤٣٢٠/٢ . وقال: هي إسم لمدينتين إحداهما بخراسان، والأخرى من أعمال قزوين . وأصل الصاحب من طالقان قزوين، لا طالقان خراسان . وذكر ياقوت في «معجم الأدباء» ١٦٩/٦ أن الصاحب من أهل «طالقان» وهي ولاية بين قزوين وأبهر، قال: وهي علة قرى يقع عليها هذا الاسم، وبخراسان بلدة تسمى «طالقان» غير هذه، خرج منها جماعة من أهل العلم، مكثوا نسبه المحدثون .

مردوه الاصفهاني، وكان عباد كاتباً ووزيراً لركن الدولة البوبي، ومات سنة خمس وثلاثين وثلاثمائة^(١).

وعلى هذا فقد كان عباد وزيراً قبل أن يكون ابنه الصاحب وزيرًا. وقال الرستمي فيه:

ورث الوزارة كابراً عن كابر موصولة الإسناد بالإسناد
بروي عن العباس عباد وزارته وأسماعيل عن عباد

وقال صاحب سلم الوصول في ترجمة الصاحب: هو الوزير الأديب ابن الوزير العطاقاني. وقال فيه أبو بكر الخوارزمي: الصاحب نشأ من الوزارة في حجرها، ودبّ ودرج من وكرها^(٢)، ووضع أفاويف درّها، وورثه عن آبائه.

٢. مولده ونشأته:

ولد الصاحب ابن عباد سنة ست وعشرين وثلاثمائة في ذي القعدة، وتوفي ليلة الجمعة الرابع والعشرين من صفر سنة خمس وثمانين وثلاثمائة بالرّي، ثم نُقلَ إلى أصبهان، ودُفِنَ في قبة تُعرف بباب دزِيه.

وقد علم الأب ابنه، وحفظه القرآن، وعلمه المنظوم والمثنوي، ولقئه ما

(١) هكذا ذكر صاحب «سلم الوصول». هو (مخطوط) الورقة ١٦٦. وتردد ابن خلگان بين سنتي ٣٢٤، ٣٢٥. وقال ابن الجوزي في «المتنظم» مات ابن عباد في السنة التي مات فيها ابنه سنة خمس وثمانين وثلاثمائة. وفي كلام ابن الجوزي والله تعالى أعلم الشك!

(٢) الدبّ: الشيء يعلُّه ولم يسرع.

الدرج: الشيء يضعف مثل الشيخ والصبي.

الوكر: عرش الطائر وموصمه الذي يبيض فيه وبفرخ.

شاء من علم وأدب، وذلك ليعده لما كان يرجو له من المتنزلة بين الأدباء والوزراء والعلماء، وكان أبوه يطمع لابنه ما كان له من خدمة الملوك، فينال بذلك مجد الدنيا وثواب الآخرة، وكان أبوه كاتب ركن الدولة بن بوه الديلمي ووزيره، وقد كان دهناً مؤمناً صادقاً، ولم يزل أبو الفضل بن العميد في حياة أبيه وبعد وفاته بالرثي، يتدرج بين المناصب العليا، حتى وصل إلى ما كان أبيه يطلب له من جاه الدنيا، فاستقر في الذروة العليا من وزارة ركن الدولة، ومدحه الشعراء مثل المتنبي بقصيدة مشهورة سائرة التي منها:

من بلغ الأعراب أني بعدها
شاهدت رسطالبس والإسكندراء
وسمعت بطليموس دارس كتبه
متملكاً متبرهاً متحضرها
ولقيت كل الفاضلين كائناً
رَدَ الْإِلَهُ نَفْوسَهُمْ وَالْأَعْصَرَا

٣. تسمية الصاحب:

كان أديباً الصاحب ابن عباد في بدء أمره من صغار الكتاب يخدم أبا الفضل بن العميد علياً خاصةً، فتركت به الحال إلى أن كتب لمؤيد الدولة بن ركن الدولة بن بوه أخي عضد الدولة بن ركن الدولة الديلمي، وكان مؤيد الدولة حينئذ أميراً، وأحسن في خدمته، وحصل له عنده بطول الخدمة مكانة، وأنس منه مؤيد الدولة كفاية وشهامة، فلقبه بالصاحب كافي الكفاءة.

قال ابن خلkan في «وفيات الأعيان»: هو أول من لقب بالصاحب من الوزراء، لأنـه كان يـصحـبـ أبا الفـضـلـ بنـ العـمـيدـ، فـقـيلـ لـهـ: «ـصـاحـبـ اـبـنـ

العميد» ثم أطلق عليه هذا اللقب لــ تولى الوزارة وبقى علــماً عليه.
وروى أنه لــقب بالصاحب لأنــه صحب مؤبد الدولة بن بويه منذ الصبا،
وسمــاه الصاحب^(١)، فاستمر عليه هذا اللقب واشتهر به، ثم سمي به كلــ من ولــي الوزارة بعده.

٤. ذكر أساتذته:

كان للصاحب أساتذة تعلم منهم وشرب من فيضهم واقتني من
علومهم، ومن أصدقهم وقعاً في نفسه، أبي الفضل بن العميد، فكان له في
نفس الصاحب منزلة عظيمة، وكان يجلــه ويذكرــه، ولعلــ الصاحب لم يمدح
بهــ شــعره من الملوك والوزراء والأمراء مثل ما مدح بهــ أستاذــه أبي الفضل،
فمدحــه فيه كثيراً استفرغ فيها جهــده، وألفــى حميــته، فمن عظيمــ فيضــه
الشعــري، هذه الأبيات من قصيدةــته:

من لصبــ بهــيم في كلــ وادــ
وقتــيل للــحب في غــير وادــ
إــنا أــذــكر الغــوانــي والــقصدــ
ســعــدي مــكــثــراً لــلســوارــادــ
إــذا ما صــدقــت فــهي ســرامــي
وــمنــائي وــروــضــتي وــمرــاديــ
ونــدي اــبنــ العــميد آــتــي عــميدــ
مــنــ هــواــها أــســبةــ الأمــجادــ
لو درــى الدــهر أــنــه منــ بنــيهــ
لــازــدرــى قــدرــ ســائــرــ الأولــادــ
أــو رــأــى النــاســ كــيفــ بهــتزــ للــجوــ
دــلــما عــدــدوهــ فيــ الأــطــواــدــ
أــنــهاــ الــآــمــلــوــنــ حــطــلــواــ ســرــيعــاــ

(١) انظر «التاجي» للصحابي.

وهو إن قال قل قس إيماد
من علاوة وأيمان آل زيداد
من علاه العزيرزة الأنداد
تأ فقد طال في مجال الجهاد
شعراء البلاد في كل ناد

فهو إن جاد فمن حاتم طيء
وإذا ما ارتأى فائين زيداد
أقبل العيد يستعير حلاه
ومديحي وإن لم يكن طال أبيا
إن خير المداح من مدحته

ومن شعر الصاحب في توديع أبي الفضل بن العميد، وفيه يظهر شفنه
وحبه الشديد، وحرصه على أن يظل معه أهلهما يكون. فيقول:

أوذع حضرتك العالية
ومن ذا يوذع هذا الجناب
جناب رعيت به جنة
رأيت به فائزات العلا
كأنني ببغداد في شوقها
ونفسي لا دمعتي هابه
فتنهنثوه بعده العافية
قطوف مكارمها دانبه
وعلّمت ما الهمم العالية
إليك وأدشعها الجاريه

ولابن عباد أستاذ آخر هو أبو الحسين أحمد بن فارس الذي حمل
إلى الرئي ليقرأ عليه مجد الدولة أبو طالب بن فخر الدولة علي بن ركن
الدولة ابن أبي الحسين بويه الدبلمي صاحب الرئي، فأقام بها قاطناً.

وكان أبو الحسين أستاذًا لأبي الفتح علي بن أبي الفضل بن العميد،
كما كان أستاذًا للصاحب ابن عباد، وكان الصاحب ثكروم ابن فارس،
وكتيراً ما كان يقول: شبختنا أبو الحسين من رزق حسن التصنيف
وأمن فيه من التصحيف.

وكان ابن فارس عالماً في علوم متعددة، منها اللغة العربية فإنه أتقنها وألف كتابه «المجمل» في اللغة، وله كتاب حلية القراء، ومسائل في اللغة اهتم بها الفقهاء، وله أشعار كثيرة حسنة^(١).

ومن وفاة الأستاذ تلميذه، أنه ألف كتاب في «فقه اللغة و السنن العرب في كلامها» ولقبه بـ«لقب تلميذه»، فسماه «الصاحب» وأهداه إليه، وكتب في مقدمته: هذا الكتاب الصاحب، في فقه اللغة العربية و السنن العرب في كلامها، وإنما عنونته بهذا الاسم لأنني لما ألفته أودعه خزانة «الصاحب» الجليل كافي الكفاية، عمر الله عرacus العلم والأدب والخير والعدل بطول عمراه، ثم جعل بذلك وتحتها، إذا كان ما يقبله كافي الكفاية من علم وأدب مرضياً مقبولاً، وما يرذله أو ينفيه منفياً مرذولاً، وأن أحسن ما في كتابنا هذا مأخوذ عنه، ومفاد منه^(٢).

ولم ينس ابن فارس أن يذكر الصاحب وأن يدعوه له قبل أن يلقي القلم، فكتب في آخر كلماته في الكتاب: «وهذا تمام الكتاب الصاحبي»، ثم الله على «الصاحب» الجليل النعم، وأسبغ له المواجب، وسنن له المزيد من فضله، إنه ولئ ذلك، وال قادر عليه. وصلى الله تعالى على نبيه محمد وآلة أجمعين، وحبيبنا الله ونعم الوكيل⁽³⁾

وأنت المرجى لظفارها
بآمالها وبآماله
ولو كنت تأذن لي في المسير
إذا سرت في جملة الحاشية

١) وفهات الأعوان ٢٥٢/١

(٢) الصاحبي في فقه اللغة و السنن العرب في كلامها «لابن فارس» ص ٢٠.

(٣) المصدر السادس ص: ٢٢٢

وقد كان أبو الفضل بن العميد الأستاذ والمعلم الذي أثر في حياة الصاحب بعلمه، وترك عنده بصمة الفن، فن الكتابة الذي أوصله إلى ما وصل إليه من منصب الوزارة، فكان تعليمه التعليم المفيد النافع في الحياة وفي العمل وفي الفن الكتابي الذي كان أستاذًا فيه، وصاحب منهج وطريقة متميزة.

٥. عصر الصاحب:

١. عاش الصاحب ابن عباد في القرن الرابع الهجري زمن بنى بويه، وهم جماعة من الفرس حكموا العراق وجنوبه فارس زهاء قرن ونصف، فكان من الطبيعي أن يصاب العرب في عهدهم بنكسة وأن تكون الغلبة للقومية الفارسية، وأن يسود المذهب الشيعي^(١) ويتوغل في شرق الإمبراطورية العباسية المفككة وغربها، وأن يؤدي ذلك إلى صراع عنيف

(١) الشيعة هم الذين شاهموا عليًّا رضي الله عنه على الخصوص، وقالوا إمامته وخلافته نعم وروضه، إما جلية، وإما خفية، واعتقدوا أن الإمام لا تخرج من أولاده، وإن نحرجت بظاهر يكون من غيره، أو ينتهي من عنده، وقالوا: ليست الإمام قضية مصلحية تناط باختيار العامة ويتصبب الإمام بتصببهم، بل هي قضية أصولية، وهي ركن الدين، لا يجوز للرسل عليهم السلام إغفاله وإهماله، ولا تفرضه إلى العامة ولرسالة، ويجمعهم القول بوجوب التعبير والتصريح، ونفيت عصمة الأنبياء والأئمة وجوباً عن الكبار والصفاقر، والقول بالتلوي قوله، وفلا، وعندما، إلا في حالة التقى، وهم نفس فرق: كهانية، وزيدية، وإمامية، وأسماعيلية، وبعضهم يميل في الأصول إلى الاعتزال، وبعضهم إلى السنة، وبعضهم إلى التشبيه. (المثل والنحل للشهرستاني ١ / ١٤٦، ١٤٧).

بين السنين الذين كان يساندهم الأتراك وبين الروافض الذين كان
يساندهم البوهبيون.

وكان هؤلاء على ما لهم من مزايا معروفي بالسلطة والجبروت
والقسوة حتى امتلاً تاريخهم بأخبار الولايات والماسي حلّت بالناس من
جرائم الفوضى التي سادت أيام حكمهم.

٢. إن هذا الانحطاط السياسي كان يقاومه رقي عقلي، وكان من
نتائج انقسام الدولة العباسية إلى دوليات أن عمدة أمراؤها سواء لأسباب
سياسية، أو بداعي حب الظهور أو تشبيهاً ببغداد إبان عزّها تشجيع
الحركة العلمية ورعاية أهل الفكر والأدب، وبعد «أن كان نصیر العلم
الخليفة أو وزيره أو بعض عماله في بلد واحد أصبح نصراؤه في هذا
العصر عدة ملوك وأمراء ووزراء في أشهر مدن العالم الإسلامي» فندا
كل قطر من أقطار المملكة مركزاً هاماً من مراكز الثقافة العربية فعرفت
الحركة العلمية التي رعاها الخلفاء العباسيون شيئاً من الاستمرار.

وبالرغم من تشييع البوهبيين، ومن يقطنة القومية الفارسية فإن هذين
العاملين لم يحولا دون انتعاش الفكر العربي، فقد كان كثيرون من
البوهبيين وزرائهم على جانب، من الثقافة حتى أصبح أساس الاختيار
للوزارة عندهم شيئاً: «القدرة الإدارية والقدرة البلاغية» وعرف هذا المعهد
وزراء احتلوا مكانة مرموقة في تاريخ الأدب والبيان العربين منهم: أبو
الفضل بن العميد وولده أبو الفتح والصاحب ابن عباد الذي جعل داره

مجمعاً لجماعات الكتاب والمنشرين والمتكلمين والمتكلفين والقراء حتى قال أبو حيان التوحيدي يصف مجلسه: «وهل عند ابن عباد إلا أصحاب الجدل الذين يشغبون ويبحمون ويتصايرون»، ومن هؤلاء الوزراء الوزير المهملي وابن العميد «والله ما لهذه الجماعة بالعراق شكل ولا نظير، وإنهم أعيان الفضل، وسادة ذوي العقل، وإذا خلا العراق منهم فرقن على الحكمة المرورية، والأدب المتهدادي، أتظن أن جميع نداماء المهملي يغون بواحدٍ من هؤلاء، أو تقدّر أن جميع أصحاب ابن العميد يشبهون أقل واحد منهم؟!».

كل هذا استدعي نبوغ كثيرين من العلماء وال فلاسفة والفقهاء والمخذلتين والمفسرين والمنصوفة فعم النشاط العلمي مدننا في العراق وفارس وبغداد والبصرة والكوفة والرمي وأصفهان وشيراز وسيراز، على أن بغداد على ما أصبت به من ضعف وتضاؤل سياسي بسبب النزاع على الحكم، ودخول عناصر أجنبية، ووجود أكثر من حاكم في وقت واحد،...الخ. إلا أنها ظلت محفوظة إلى حد ما ببقائها مجدها القديم، ولم يخطيء متز حين قال: «إن جميع العركات الروحية في مملكة الإسلام كانت تنلامط أمواجها في بغداد، وكان فيها لجميع المذاهب أنصار».

٢. كانت الحالة الاجتماعية في أواخر القرن الثالث شبيهة بالحالة السياسية من حيث الفوضى وقد ان الاستقرار، وكان من أبرز مظاهر هذا الاضطراب تباعد في الطبقات الشعبية وسوء توزيع للثروة العامة، وفسو الاستغلال والترف والبذخ في الطبقات العليا على حساب الطبقات الدنيا حتى أصبح الناس كما يقول مسکوريه: «بن هارب جالي، إلى مظلوم صابر،

إلى مستريح لتسليم ضيعبته إلى المقطع ليأمن شره وبواقهه وتعدّ آثار التوحيد مثلاً صدى أميناً لحالة البؤس التي انحدر إليها الناس، ومن بينهم المفكرون وأهل الأدب والمعرفة وهم الجديرون بحياة كريمة شريفة، فقد كان أبو سليمان السجستاني المنطقي المشهور «بحاجة ماسية إلى رغيف، وحوله وقتها قد عجزا عن أجرة مسكنه ووجبة غذائه وعشائه».

وكان أبو سعيد السيرافي «عالم العالم، وشيخ الدنيا، وقناع أهل الأرض على حد تعبير تلميذه التوحيدى ينسخ في اليوم عشر ورقات بعشرة دراهم ليعيش».

وكان سيد الفلاسفة بحى بن عدى الصرانى «يكتب في اليوم والليلة مائة ورقة وأكثر» وكان المعافى بن زكريا التهراوى ذا «أنسية بسائل العلوم» شاهده التوحيدى في جامع الرصافة «وقد نام مستدير الشمس في يوم ثابت، وبه من أثر الفقر والبؤس أمر عظيم، مع غزارة علمه، واتساع أدبه، وفضله المشهور».

وقد زاد الحالة سوءاً كثرة الضرائب وامتداد وطأة الإقطاع، وفرض الرسوم، واحتياط عمالي البوهيمين من جندي وقزاد ومتصرفين في تحصيل الأموال، واحتياط قوت الفقراء والاعتداء على الناس ومصادرتهم حتى ثارت الطبقات الفقيرة أكثر من مرة وخاصة في عهدى عضد الدولة وصمصان الدولة، وقال المقدسي بصف حال العراق سنة ٣٧٥: «إنه بيت الفتن والغلاء، وهو في كل يوم إلى الوراء، ومن الجور والضرائب في جهيد وبلاع».

٤. كان من الطبيعي أن تتأثر الآداب والفنون بهذا التدهور الاقتصادي، فتجمع الأدباء والمفكرون وأهل المعرفة على أبواب الخلفاء طلباً للرزق، وكثر التراحم بينهم في جوٍّسوده الدسائس والمؤمرات والوشائط والتملق، ممّا أبعد الأديب عن المثالية، والترفع عن الدنيا، فحصر جهوده في الوصول إلى المجد والثروة والشهرة فخفّت العاطفة الصادقة، وغلب التكلف والمبالغة على الأدب، وتلوّن بلون الشحذ والضراعة والاستعطاف، وأمن الناس بالحظوظ والتجوم والطوالح والرزق المقسم، فعابوا الزمان والفقر وذمه.

٦- بنو بويه:

ابتدأ الدور الثاني للخلافة العباسية في أيام المستكفي بالله الذي تولى الخلافة، أو أُسند إليه منصب الخلافة، أُسنده إليه القائد «توزون» الديلمي بعد أن غدر بال الخليفة المتقي لله (٢٠ ربيع الأول سنة ٣٢٩ - ٣٣٣ صفر سنة).

وكان الخلفاء من بني العباس يجمعون السلطة الدينية والسلطة الزمنية في تلك الدولة الواسعة المترامية الأطراف، ولم يبق للخلفية العباسية في بغداد من الخلافة إلا اسمها، أي إنه أصبح رمزاً للسلطة الدينية فحسب يدعى باسمه على المنابر، وليس له شيء من الأمر أو النهي، بل لم يبق له وزير يدير شؤون الدولة باسمه، وإنما كل ما كان له كاتب يدير شؤونه المالية ويخصي نفقاته ودخل إقطاعاته لا غير.

أما ما عدا ذلك من شؤون الحرب والسياسة وتدبير أمر الرعية، فلم يكن ل الخليفة بنى العباس منها قليل أو كثير.

وقد ظهر بنو بويه (٣٣٤ - ٤٤٧ هـ) وفي تلك الفترة أُسندت الخلافة الأساسية إلى خمسة من خلفاء بنى العباس، هم المستكفي والمطيع والطائع والقادر والقائم.

وكان آل بويه من بلاد الديلم أو بلاد جيلان التي تقع في الجنوب الغربي من شاطئ بحر الخزر (بحر قزوين).

وقد ظلل الديلم على وثنيتهم حتى بعد أن فتح المسلمون بلادهم، وأتمواهم على أنفسهم وأموالهم في أيام الخليفة الثاني عمر بن الخطاب، على الرغم من أن بلاد طبرستان التي كانت تجاور بلادهم كان يدين أكثر أهلها بالإسلام، وكان بينهم وبين الطبريين سلم ومواعدة.

وظل الديلم على وثنيتهم حتى دخل بلاد الديلم الحسن بن علي الأطروش الذي وأقام بينهم مدة ثلاثة عشر سنة يدعوهم إلى الإسلام، ويقتصر منهم ملي العشر، ويدفع عنهم عدوهم، حتى تبعه منهم خلق كبير، ودخلوا في الإسلام، وبنى في بلادهم المساجد لإقامة الصلاة.

وقد ساد من بنى بويه ثلاثة أشقاء استطاعوا بيسارتهم وسخائهم وحسن حيلتهم أن يقودوا الجيوش، وأن يجمعوا حولهم القلوب، وأن ينشروا سلطانهم على بقعة كبيرة من الدولة الإسلامية، حتى كانت لهم دولة مزدهرة في تاريخ الإسلام حكمت مدة طويلة (٢٢٠ - ٤٤٧ هـ) = (٩٣٢ - ١٠٥٥ م).

وكان أبوهم بوه بن فناخسرو الشكتى يأتى شجاع يدّعى أنه من نسل ملوك سasan القدماء ليكسب لأسرته نفوذاً في هذه البلاد، وأشهر الذين نقل عنهم هذا القول أبو إسحاق إبراهيم بن هلال الصابى المتوفى سنة ٤٣٨هـ، فقد قال في كتابه «التاجي» أنّ بوه بن فناخسرو في نسبهم إلى بهرام جور بن بزدجرد الملك الساساني، وأنّ بوه هو ابن فناخسرو بن تمام ابن كوهى بن شيركوه بن شيرزيل الأكبر بن شيران شاه بن شيرفه بن سستان شاه ابن سسن بن شيروزيل بن سمناد بن بهرام جور الملك ابن بزدجرد بن هرمز.

وتدل الروايات على أن الصابى حين كان يكتب كتابه «التاجي» لم يكن متعملاً ب تمام حرفيته، وأنه حمل عليه حملاً، فقد ذكر ابن خلكان أن الصابى كان كاتب الإنماء ببغداد عن الخليفة، وعن عز الدولة بختيار ابن معز الدولة بن بوه الدبليسي.

وكان تصدر عنه مكابibات إلى عضد الدولة بما يؤلمه، فحقّد عليه، فلما قتل عز الدولة وملك عضد الدول ببغداد اعتقله في سنة ٤٣٦هـ، وعزم على إلقائه تحت أيدي الفيلة، فشقعوا فيه، ثم أطلقه سنة ٤٣٧هـ، وكان قد أمره أن يضع له كتاباً في أخبار الدولة الدبليمية، فعمل «الكتاب التاجي» فقبل لعضد الدولة أن صديقاً للصابى دخل عليه فرآه في شغل شاغل من التعليق والتسويد والتبييض، فسأله عما ي العمل، فقال: «أباطيل أتفهاً، وأكاذيب أتفها». فحركت ساكنه، وهبّت حقده، ولم يزل مبعداً في أيامه^(١).

(١) وفيات الأعيان ١٠٩/١.

فهل نستطيع أن نطمئن إلى صحة هذا النسب كما رواه الصابي؟

ليس من المعقول أن يصدق قول الصابي «أباطيل أتفها، وأكاذيب أتفها» على كل ما كتب الصابي هل المعقول أن في «التاجي»، هل أن أكثر ما فيه صحيح، فقد كتب على أرض الأحداث، وفي مشهد من الذين عاشوا هذه الأحداث وعاصروها، ولكن الأسباب الضاربة إلى هذا الحد من القدم مجال كبير للشك والتردد، ومجال كبير للحدس والتلقيف، لا سيما أن تلك الأسم لم تكن معروفة بحفظ الأنساب، ولم يكن يعرف شيء من ذلك أي من آباء بويه وأجداده قبل أن يصبح أباًًاً ملوكاً وحكاماً.

على أن هذا النسب الذي ذكره أو اخترعه أو أمر بذلك واعتبره لم يقابله كثير من المترجمين بالرضا والاطمئنان، وطعن بعضهم في أخباره، وقد روى ياقوت ما ذكره ثقفات منهم أبو القاسم علي بن محمد الكرخي. وكان شديد الاختصاص بالصاحب. أن الصاحب كثيراً ما كان يقول: «كتاب الدنيا وبلغاء العصر أربعة: الأستاذ ابن العميد، وأبو القاسم عبد العزيز بن يوسف، وأبو إسحاق الصابي، ولو شئت لذكرت الرابع» يعني الصاحب به نفسه.

ويقول ياقوت بعد ذلك: فاما الترجيح بين هذين الصدرين، أعني الصاحب والصابي في الكتابة، فقد خاض فيه الخائضون، وأطب المحسلون^(١)، ومن أشفي ما سمعته في ذلك^(٢) أن الصاحب كان يكتب

(١) حصل الكلام: رده إلى مقاده ومعناه.

(٢) أي متى يشفى الغلة في هذا الباب.

^(١) كما يزيد، وأبو إسحاق يكتب كما يؤمر، وبين الحالتين هون بعهد.

ثم إننا لم نر إجماعاً على صحة هذا النسب إلى ملوك آل ساسان القدماء، فقد اختلف المترجمون في بهرام الذي رفع إليه نسبه، فقد قال القائلون نسبة إلى الفرس هو بهرام جور بن مزدجرد بن سابور^(٢)، وقال آخرون نسبة إلى العرب، وقالوا عن بهرام إنه بهرام بن الضحاك بن الأبيض بن معاوية بن الدبلم بن باسل بن ضبة بن إد^(٣).

ويرى البيروني أن هذا النسب مختلف لأن الأنساب قلًّا أن تحفظ بالتوالي إذا طال الزمان وامتدت الأمام، ويقول إن السبيل إلى معرفة صحة الانتفاء إلى أصل ما من باطله أهلاً: الكافة وإن جماع العجيل على ذلك، كسيد ولد آدم عليه الصلاة السلام

وقال ابن خلدون إن هذا النسب مصنوع تقرّب إلى بني هود به من لا يعرف طبائع الأنساب في الوجود، واستبعد أن يكونوا من غير الدليم ثم تكون لهم رئاسة على الدليم، كما استبعد أن يختفي نسبهم هذا ولم يكن بينهم وبين بزدجرد وانقطاع الملك إلا ثلاثة عشر سنة، فيها سبعة أجيال أو ثمانية^(٤).

٥٢ / الأدباء / مجمع (١)

(٢) ابن الأثير / ٩١

(٣) الآثار الباقية من القرون الخالية لأبي الريحان.

^{٢٨}) محمد بن أحمد البهروني.

تاریخ ابن خلدون ٤٢٦/٤

ويقى بعد ذلك أن بني هويه كانوا من الديلم، والباحثون عن تاريخهم القديم يختلفون في أصل هذا الشعب كله، فيذهب بعضهم إلى أنهم من ولد ضبة الذين كانت مساكنهم بالناحية الشمالية من بلاد نجد بجوار بني تميم، وأنهم قد هاجروا إلى هذه الجهات على أثر نزاع بينهم وبين جيرانهم من القبائل الأخرى، وأنهم افترقوا فرقين لأنهم كانوا يتسبون إلى آخرين (ديلم) و(جيل)، فبقيت ذرية كل واحد من الأشخاص منسوبة إليه^(١)، ومعنى ذلك أنهم يرجعون إلى أصل عربي، وقد تشكك في هذا القول أكثر المؤرخين.

وذهب آخرون إلى أن الديلم من أصل فارسي كما مرّ، في حين يرى فريق ثالث أن الديلم كانوا جنساً مستقلاً، وأن المناطق التي كانوا يسكنونها عند بحر قزوين هي مواطنهم الأصلية، وأن لهم صفاتهم وأخلاقهم وطبيعتهم المتميزة التي جعلت لهم شخصية مستقلة وهم شعب بدوي يمتاز بالخشونة والجلد والعجلة وقلة المبالاة كما يقول المصطخري^(٢)، ولما أراد الحجاج أن يفتح بلادهم، ولم يكن رجاله يعرفون طبيعتها، أمر برسم مصور لها، فلما عرف الديلميون ذلك قالوا: «صدقوك عن بلادنا، هذه صورتها، غير أنهم لم يصورو لك فرسانها الذين يمنعون هذه العقاب والجبال، وستعلم ذلك لو تكلفت»^(٣)، ولما علم الخليفة العباسي المعتصم خبر دخول أحد الديلمية قزوين، وصفهم

(١) المتنزع من كتاب «النهاية». - الورقة ١

(٢) مسالك المسالك للإصطخري ص: ٢٠٣.

(٣) مختصر كتاب البلدان لابن القسم ص: ٢٨٣.

بأنهم شر أمة في الدنيا، وأئتهم مكراء، وأشدهم هامساً، وأقواهم قلوبها...
والله لو ملكوا قزون - لنبعوا على - من تحت سريري هذا، واحتروا
على دار المملكة^(١).

وقد الحق بوري أولاده في خدمة قواد الدولة، وكانوا يعيشون مع
أبيهم على صيد السمك واحتطاب الحطب، وقد ذكر أبو الفرج بن
الجوزي في كتاب «شنور العقرد» أن معر الدولة أبا الحسين أحمد بن
بوري كان في أول أمره يحمل الحطب على رأسه، ثم ملك هو وأخوه
البلاد^(٢)، وفي حديث صاحب «تجارب الأمم» عن ركن الدولة الحسن
بن بوري أنه كان يفسح لجنته وعسكته على طريق مداراتهم ما لا يمكن
أحد تلافيه وردهم عنه، وكان مضطراً إلى فعل ذلك، لأنه لم يكن من
أهل بيت الملك، ولا كانت له بين الدليل حشمة من يمثل جميع أمره،
ولما برأس عليهم بساحة كثيرة كانت فيه، ومساحة في أشياء لا
يتحملها أمير عن مأمور^(٣)، والذي يستفاد من كل هذا أنبني بوري قد
صنعوا أمجادهم بأنفسهم، وبنوا ملوكهم بساعدهم وحرابهم وسيوفهم
وسخائتهم وواسع حيلتهم.

وأولاد بوري الذين شُيّدت دولتهم «دولةبني بوري» أو «الدولة البويمية»
ثلاثة هم:

(١) نشرار الصحاضرة وأخبار المذاكرة للتوكخي ص: ١٥٥.

(٢) وفيات الأعيان ٧٥/٢.

(٣) تجارب الأمم ٢٧٩/٦.

١. عماد الدولة، علي بن بويه، الذي كان يحكم فارس والأهواز، وكان أكبربني بويه، ولذلك كان يلقب «أمير الامراء».
٢. ركن الدولة، الحسن بن بويه، الذي كان يحكم الجبل والري وجرجان وطبرستان.
٣. معز الدولة، أحمد بن بويه، الذي حكم العراق وقد أطلقت هذه الألقاب الثلاثة . عماد الدولة، وركن الدولة، ومعز الدولة . على الاخوة الثلاثة في يوم واحد، وكان الذي أطلقها عليهم هو الخليفة العباسي «المستكفي بالله».

كان هؤلاء الثلاثة حينما قام الديلم بتوسيعهم وفتحهم جنوداً في جيش (ماكان بن كالبي) ولكتهم ارتفعوا بسرعة إلى مرتبة الأمراء، ثم فارقوه بعد أن ضعف أمره وانحازوا إلى قائد ديلمي آخر هو (مرداويع بن زياد) الذي خرج على (أسفار بن شيروبه) واستولى على بلاد جرجان وطبرستان وقزوين وزنجان وقم والكرج، فزاد نفوذه حوالي عام ٣٢٠هـ، وتحجّب إلى الرعية، وعمل له سريراً من ذهب يجلس عليه، وسريراً من فضة يجلس عليه أكابر قواده، وامتدت سلطته إلى حدود العراق، وأسس الدولة الزيدية، وعزم على أن يستولي على بغداد، وينقل الدولة إلى الفرس ويطلق دولة العرب^(١).

ولما استقرت قدم (مرداويع) على هذا النحو، قدم عليه أبناء بويه الثلاثة الذين كانوا قواداً في جيش (ماكان بن كالبي) وفارقوه لتناضلت

(١) الأدب في ظل بن بويه ص: ٢٤.

بهم الحال، وكان معهم جماعة من قواد ما كان. وقد رحب مرداویج بأبناء بویه فخلع على علی والحسن، وولی القواد الذين جاؤوا معهم التواحی، وولی علی بن بویه بلاد الکرج، وكثب لهم بذلك العهد، فساروا إلى الری، وبها «وشمکیر» أخو مرداویج، ومعه وزير مرداویج «الحسین بن محمد» الملقب بالعمید. وصادف أن کان ابن بویه بغلة شهاء من أحسن ما يكون، فعرضها للبيع بلغ ثمنها ۲۰۰ دینار، فعرضت على العمید فأخذها ونقد ثمنها، فلما حمل إلى علی أخذ منه عشرة دنانير، وردد الباقی ومعه هدية جميلة، فكان ذلك بهذه الصلة بين العمید وأآل بویه.

ولكن مرداویج أحس بالخطأ فيما فعل، وندم على ما کان من اطمئنانه إلى هؤلاء، فكتب إلى أخيه «وشمکیر» وإلى العمید يأمرهما بمنع أولئك القواد عن المسير إلى أعمالهم، وإن کان بعضهم قد خرج بود.

ولكن الكتب كانت تصل إلى العمید فيقرؤها قبل وشمکیر، ثم يعرضها عليه. فلما وقف العمید على هذا الكتاب أنفذ إلى علی بن بویه يأمره بالمسير من ساعته إلى عمله، ويعطوي المنازل، فسار ابن بویه من ساعته.

ولما أصبح العمید عرض كتاب مرداویج على وشمکیر، فمنع سائر القواد من الخروج إلى الری، واستعاد التوقيعات التي كانت معهم.

وأراد أن ينفذ خلف علی بن بویه من بوده، فقال العمید: «إنه لا يرجع طوعاً، وربما قاتل من يقصده، ويخرج من طاعتنا» فركه ووصل علی بن بویه إلى الکرج، وأحسن إلى الناس، ولطف بهمال البلاد، فكتبا إلى مرداویج

بشكرونه، وبصفون ضبطه للبلاد وحسن سياسته، وصرف كثيراً في استمالة الرجال بالصلات والهبات، فشاع ذكره، وقصده الناس وأحبوه.

ولتنا كان مرداویج بالری أطلق مالاً لجماعة من قواده على الكرج، ولكن ابن بويه استطاع أن يستميلهم، فوصلهم وأحسن إليهم حتى مالوا إليه، وأحبوا طاعته، وبلغ ذلك مرداویج فاستوحش وندم على إنفاذ أولئك القواد، فكتب إليهم ولائي علي بن بويه يستدعيم إلية، وتلطف بهم في هذا الاستدعاء ما استطاع.

ولكن ابن بويه أخذ يراوغه، واشتغل بأخذ المهد على قواده، وخرقهم سطوة مرداویج، فأجاهوه جمیماً، فجیبی مال الكرج، واستأنمن إليه (شيرازاد) وهو من أعيان قواد الدیلم، فقویت نفسه، وسار معه إلى أصحابه فاستولى عليها من بد المظفر بن ياقوت.

وقد بلغ ذلك الخليفة فاستعظمته، وبلغ مرداویج فأقلقه، ونحاف على ما بيده من البلاد، واغتم لذلك غماً شديداً، ولكن مرداویج أراد أن يحتال فكتب إلى ابن بويه يعاتبه ويستميله، ويطلب منه أن يظهر طاعته حتى يمدء بالعساکر الكثيرة ليفتح بها البلاد، ولا يكلّفه سوى الخطبة باسمه في مساجد البلاد التي يستولي عليها. وفي الوقت نفسه جهز مرداویج أحاه وشکیر في جيش كثيف ليأخذ ابن بويه على غرة، فعلم بذلك فرحل عن أصحابه بعد أن جابها شهرين، وتوجه إلى أرjan وبها أبو بكر ابن ياقوت، فانهزم عنها أبو بكر من غير قال، وقصد رامهرمز، فاستولى على أرjan سنة ٣٢٠هـ، واستخرج منها أموالاً قوى نفسه بها.

وقد جاءته وهو براهمير كتب من أبي طالب زيد بن علي التوبندي جانبي
يشير عليه بالمسير إلى شيراز، وبهون عليه أمر باقوت وأصحابه ويعرفه
بتهوره وانتفاله بجباية الأموال، وكثرة مؤونته ومزونة أصحابه، ونقل
وطأنهم على الناس مع فشلهم وجبنهم، فتردد علىي أولاً، ثم عزم على
المسير، فسار نحو التوبندجان في ربيع الآخر سنة ٣٢١ هـ فلقي بها مقدمة
باقوت فهزها، ثم سار منها إلى اصطخر، خوفاً أن يقع بين باقوت
ومرداويج، لأنه بلغه أنها تراسلا ليتفقا عليه، فقابلها باقوت بجيشه، فكان
النصر لعلي، وانهزم باقوت ومن معه.

وكان أحمد بن بوه متمن ظهر أثره في ذلك اليوم، وهي صبي لم
تنبت لحيته، وكان عمره ١٩ سنة. وبعد هذا الانتصار عامل على الأسرى
أحسن معاملة، وخیرهم بين المقام عنده واللحاق بياقوت فاختاروا المقام
عنه، فخلع عليهم وأحسن إليهم.

ثم سار حتى أتى شيراز قصبة فارس فاستولى عليها، ونادى في الناس
بالأمان، واستولى على كثير من أموال باقوت وودائعه فسهلت عليه
استرضاء الجنود والتودد إليهم فأحبوه، وثبت ملكه.

وعند ذلك أحسن على بن بوه بحاجته إلى قوة روحية تستدده، وتثبت
سلطانه، فأرسل إلى خليفة بغداد (الراضي بالله) والى وزيره (ابن مقلة)
يعرفهما أنه على الطاعة، ويطلب أن يقاطع على ما بيده من البلاد، وبذل
ألف ألف درهم، فأجيب إلى ذلك، وأنفذت إليه الخلع واللواء.

ولما بلغ مرداويج ما ناله ابن بوه قام لذلك وقعد، وسار إلى أصحابه

للتدبر عليه، وبها أخوه وشريكه، فرأى أن ينفذ عسكراً إلى الأهواز للامتناع عليها، ويسد الطريق على ابن بويه إذا قصده، فلا يبقى له طريق إلى الخليفة، وبقصده هو من ناحية أصبهان وسارت عساكر مرداويع حتى بلغت أهذج في رمضان، ثم استولت على رامهرمز في شوال سنة ٢٣٢ هـ ثم استولت على الأهواز وأجلت عنه باقوناً.

ولما بلغ ابن بويه أن مرداويع استولى على الأهواز كاتب نائب يستميله إليه، ويطلب منه أن يتوسط بينه وبين مرداويع، ففعل واستمر الأمر بينهما على أن يخطب ابن بويه باسم مرداويع، وأهدى له ابن بويه هدية جميلة، وأنفذ إليه أخيه الأوسط الحسن بن بويه، ليكون رهينة بين يديه.

ومن حسن حظ ابن بويه أن جنود مرداويع الأتراك تمردوا عليه، لأنه كان كثير الإساءة إليهم، يفضل عليهم الديالمة الذين هم من عنصره، فانفقو على اغتياله فقتلواه سنة ٢٣٢ هـ.

وكان رؤوساء المتألبين على مرداويع من الأتراك «بجكم» و«توزون» وهما اللذان توليا إمرة الأمراء بالعراق، و«ماروق» و«ابن بغرا» و«محمد بن ينال» الترجمان.

ولما تم لهم ما أرادوا تفرق الجيش، فأما الأتراك فاقتربوا فرقين: فرقة منهم لحقت بابن بويه، وفرقة سارت نحو الجبل مع «بجكم». وأما الديلم فقد ذهبوا إلى وشميري أخوه مرداويع أن تخليص الحسن بن بويه الذي كان رهينة عنده، وسار إلى أخيه بفارس.

· وعلى هذا صارت القوى الكبرى التي تتنازع بلاد العجم ثلاثة: قوة علي بن بويه بفارس، وقوة شمسكير بالري: وقوة السامانية بخراسان وما وراء النهر.

أما باقوت الذي كان بالأهواز فقد ضعفت قوته حتى لم يعد قادرًا على الاحتفاظ بما معه فضلًا عن مصادمة غيره.

وكانت القوة الحية النامية بين هذه القوى جميعاً هي قوة ابن بويه الذي سير أخاه الأوسط «الحسن بن بويه» إلى بلاد الجبل ومعه المساكير فاستولى على أصبهان، وأزال عنها وعن عدة من بلاد الجبل نواب وشمسكير، وبقي هو وشمسكير يتنازعان هذه البلاد، وهي: أصبهان، وهمدان، وقم، وقاشان، وكرج، والري، وكنكور، وغزوين، وغيرها، حتى تم للحسن بن بويه الاستيلاء عليها بعد خطوب وحروب طويلة، حتى استطاع أن يجعلها نواب وشمسكير.

خطر ببال علي بن بويه أن يهد سلطانه إلى الأهواز والعراق، لذا علمه من ضعف قوة الخليفة ببغداد، وكان هو مشغولاً بإدارة إقليم فارس، وكان أخوه الحسن مشغولاً بلاد الجبل، أما أخوهما الأصغر «أحمد» فلم يكن له شغل، فسيطر عليه إلى الأهواز، فاستولى عليها بعد حروب بينه وبين «بحكم الرائق» وأنهزم بحكم إلى واسط.

٧- فتح العراق:

كان من أهم ما يتطلع إليه ابن بويه المسير إلى العراق بعد الاستيلاء على

واسط، فصار أَحْمَدُ بْنُ بَوِيهِ يَسِيرُ إِلَى وَاسْطِ ثُمَّ يَعُودُ عَنْهَا، حَتَّى كَاتَبَهُ قَوَادُ بَغْدَادَ يَطْلُبُونَ إِلَيْهِ الْمَسِيرَ نَحْوَهُمْ لِلْإِسْتِيلَاءِ عَلَى بَغْدَادَ، وَقَدْ اسْتَجَابَ لِهَذَا الْعَلْبَ فَسَارَ إِلَى بَغْدَادَ حَتَّى وَصَلَ إِلَيْهَا يَوْمَ ١١ جُمَادَى الْأُولَى سَنَةٍ ٣٢٤هـ، وَكَانَ الْخَلِيفَةُ بِهَا هُوَ «الْمُسْتَكْفِي بِاللَّهِ» الَّذِي قَاتَلَهُ وَاخْتَفَى بِهِ، وَبَابِعَهُ أَحْمَدُ، وَحَلَّفَ كُلُّ مِنْهُمَا لِصَاحِبِهِ، هَذَا بِالْخَلْفَةِ، وَذَلِكَ بِالسُّلْطَنَةِ.

وَفِي ذَلِكَ الْيَوْمِ شَرْفُ الْخَلِيفَةِ بْنِ بَوِيهِ بِالْأَلْقَابِ: فَلَقْبُ عَلَيْهِ صَاحِبُ فَارِسِ «عَمَادِ الدُّولَةِ» وَهُوَ أَكْبَرُهُمْ.

وَلَقْبُ الْحَسَنِ صَاحِبِ الرَّئْيِ وَالْجَبَلِ «رَكْنُ الدُّولَةِ».

وَلَقْبُ أَحْمَدَ صَاحِبِ الْعَرَاقِ «مَعْزُ الدُّولَةِ» وَهُوَ أَصْغَرُهُمْ^(١).

وَمِنْذَ ذَلِكَ الْيَوْمِ أَخْذَ نَجْمُ بْنِ بَوِيهِ فِي الْإِشْرَاقِ وَاللَّمْعَانِ، وَانْ أَخْذَتِ الدُّولَةُ فِي التَّدَهُورِ وَالْانْهَالِ، وَاحْتَلَّتِ أَحْوَالُ الرَّعَايَا أَمَامَ أَحْدَاثِ كَثِيرَةٍ لَا مَجَالَ لِتَفْصِيلِهَا فِي هَذِهِ الْعِجَالَةِ.

وَلَقَدْ خَطَرَ بِيالِ مَعْزِ الدُّولَةِ أَنْ يَزِيلَ اسْمَ الْخَلْفَةِ أَيْضًا عَنْ بَنِي الْعَبَّاسِ، وَيُولِيهَا خَلِيفَةً عَلَوِيًّا، لِأَنَّ الْبَوَّبِيَّيْنِ كَانُوا شِيعَةً زَيْدِيَّةً، قَدْ وَصَلَتْ إِلَيْهِمُ التَّعَالِيمُ إِلَاسْلَامِيَّةُ عَلَى يَدِ الْحَسَنِ بْنِ زَيْدٍ، ثُمَّ عَلَى يَدِ الْحَسَنِ الْأَطْرَوْشِ، وَكَلَاهُما زَيْدِيٌّ. فَكَانُوا يَعْتَقِدونَ أَنَّ بَنِي الْعَبَّاسِ قَدْ غَصَبُوا الْخَلْفَةَ مِنْ مُسْتَحْقِيقِهَا، وَهُمْ أَبْنَاءُ عَلَيْهِ. وَلَقَدْ حَاوَلَ مَعْزُ الدُّولَةِ ذَلِكَ لَوْلَا أَنْ بَعْضَ

(١) تَارِيخُ الْأَمْمِ إِلَاسْلَامِيَّةُ «عَصْرُ الدُّولَةِ الْعَبَّاسِيَّةِ» ٣٧٨/٣.

خواصه أشار عليه ألا يفعل، وقالوا له: «إنك اليوم مع خليفة تعتقد أنت وأصحابك أنه ليس مع أهل الخلافة، ولو أمرتهم بقتله لقتلوه مستحبين دمه، ومتى أجلست بعض العلويين خليفة كان معك من تعتقد أنت وأصحابك صحة خلافته، فلو أمرهم بقتلك لفعلوا»^(١)

فأعرض عنا كان قد عزم عليه وأيقن اسم الخليفة لبني العباس، وانفرد هو بالسلطان، ولم يبق بيد الخليفة شيء إلا ما أقطعه معز الدولة متى يقوم بحاجته^(٢).

وعلى الرغم من أن بني بويه قد سلبا السلطة كلها من يد الخليفة بني العباس، وعلى الرغم من رضا الخلفاء بهذا المهاون، لم يسلموا من سوء معاملة البوبيهيين وظلمهم، ففي سنة ٣٢٤ ذهب معز الدولة إلى دار الخلافة، وذهب إليها سائر الناس على عاداتهم، فلما جلس المستكفي على سريره ووقف الناس على مراتبهم، دخل الأمير فقبل الأرض على رسمه، ثم قبل يد المستكفي، ووقف بين يديه يحدّثه، ثم جلس على كرسيه، فقدم اثنان من الدبلوماسيين، وماذا أهدياه إلى المستكفي، وعلا صوتهما بالفارسية، فظن أنهما يريدان تقبيل يده، فمدّها إليهما، فجذبهما بها، وطراه على الأرض، ووضعها عمامة في عنقه وجراه.

فنقض معز الدولة، واضطرب الناس، وارتقطعت الرعفات، واقتتلت دار السلطان، وضربت الأبواق. وساق الدبلوماسيان المستكفي بالله ماشياً إلى دار معز الدولة حيث خلع، وسلمت عيناه، وأقيم مكانه المطيع خليفة^(٣).

(١) انظر الكامل لابن الأثير ٣١٥/٦.

(٢) تجارب الأمم ٨٦/٦.

وطوال القرن الذي وصل فيه نفوذ البوهيميين إلى أقصاه (٩٤٥-١٠٥٥م) واصل البوهيميون سياستهم من عزل الخلفاء وتوليتهم وفق هواهم. وكان لهم في بغداد قصور عدة فخمة كان يجعلها باسم دار المملكة.

ولم تعد بغداد السيدة التي تحرك العالم الإسلامي بل زاحتها، وطفت عليها في ذلك شيراز، وغزنة، والقاهرة، وقرطبة، التي كانت كلها تنافسها السيادة الدولية في العالم الإسلامي^(١).

وكانت مدة ملك معز الدولة في العراق إحدى وعشرين سنة وأحد عشر شهراً، وتوفي في ربيع الآخر سنة ٣٥٦هـ ببغداد ودفن في داره، ثم نقل إلى مشهد له بني له في مقابر قريش^(٢).

وولي المملكة بعد وفاة معز الدولة ابنه أبو منصور بختيار الملقب عز الدولة، وتزوج الخليفة العلائـع ابنته «شاه زمان» على صداق مبلغة مائة ألف دينار.. وكانت بين عز الدولة وبين عميه عضـد الدولة فناخسرو بن ركن الدولة الحسن بوـهـ منافـسـاتـ فيـ المـلـكـ أـذـتـ إـلـىـ التـنـازـعـ وـأـفـضـتـ إـلـىـ السـحـارـيـةـ، فالـتـقـاـ بـوـمـ الأـرـبـاعـ ١٨ـ شـوـالـ سـنـةـ ٣٦٢ـهـ، فـقـتـلـ عـزـ الدـوـلـةـ وـكـانـ عـمـرـهـ سـنـاـ وـثـلـاثـيـنـ سـنـةـ^(٣).

(١) نجيب حني (تاريخ العرب) ٦١٠/٢.

(٢) هي مقبرة مشهورة ببغداد ومحلـةـ فيهاـ خـلقـ كـثـيرـ، وبـهاـ قـبرـ مـوسـىـ الكـاظـمـ بنـ جـعـفرـ الصـادـقـ وأـوـلـ منـ دـفـنـ بـهـ جـعـفرـ الـأـكـبـرـ بنـ آـبـيـ جـعـفرـ المـنـصـورـ سـنـةـ ١٥٠ـهـ، وـالـمـنـصـورـ هوـ أـوـلـ منـ جـعـلـهاـ مـقـبـرـةـ لـماـ اـبـتـنـيـ مـدـيـنـةـ بـعـدـادـ سـنـةـ ١٤٩ـهـ.

(٣) وفيات الأعيان ١١/٢.

وقد وصلت قوة البوهيمين إلى أقصاها في عهد عضد الدولة (٢٦٢. ٩٧٩هـ) = (١٩٨٣م). ولم يكن عضد الدولة أعظم البوهيمين فحسب بل كان أيضاً أعظم حاكم في زمانه. لقد طوى تحت سoulderائه كل الدولات الصغيرة التي ظهرت في عهد الحكام البوهيميين في فارس والعراق، فألقى من المجموع إمبراطورية كادت تصل في الاتساع إلى إمبراطورية هارون الرشيد، وقد تزوج مع ابنة الخليفة (الطائع)، وحمل الخليفة على الرواج من ابنته، وكان يأمل من وراء ذلك أن يكون له ولد يكون له الحق في الخلافة نفسها.

وكان عضد الدولة أول حاكم في الإسلام حمل لقب (شاهنشاه)^(١) ولم يقم في آل بوهيم مثل عضد الدولة جرأة وإقداماً، وكان عاقلاً فاضلاً، حسن السياسة، شديد الهيبة بعيد الهمة، ثاقب الرأي محباً للفضائل، واهباً باذلاً في مواضع العطاء، مانعاً في مواضع الحزم، ناظراً في عواقب الأمور، وهو الذي بني على مدينة الرسول عليه السلام سورة إلا أنه كان مع ذلك فخوراً يميل إلى اللعب واللهو، وكان شاعراً أدبياً، ومن شعره:

ليس شرب الكأس إلا في المطر	وغناء من جوار في السحر
غانيات سالبات للنهى	ناغمات في تصاعيف الوتر
مبرزات الكأس من مطلعها	ساقيات الراح من فاق البشر
ع ضد الدولة وابن ركناها	ملك الأملاك غلاب القدر

(١) شاهنشاه كلمة فارسية معناها «ملك الملوك» وقد صفت غرار اللقب القدم للملوكية. (انظر

تاريخ العرب ٦١١/٢).

وهذا غلو كبير^(١). وقد جمل بغداد وأصلح القنوات التي كانت قد طمست وأقام في كثير من المدائن المساجد والمستشفيات والمباني العامة، وخصص جزءاً من أموال الدولة لأعمال الخير والإحسان، ومن المباني الهامة التي شيدتها «مشهد الإمام علي».

ولكن أشهر مبانيه على الإطلاق هو مستشفى بغداد المشهور المسما «البيمارستان العضدي» وكلف الخزانة مائة ألف دينار. وكان يعالج المرضى في المستشفى أربعة وعشرون طبيباً كانوا أيضاً بمنابع هيئة تدريس في كلية الطبية.

وكتيراً ما تغنى الشعراء من أمثال المتibi^(٢) ب مدح عضد الدولة، كما أهدي إليه كثير من المؤلفين كتبهم مثل النحوي المشهور أبي علي الفارسي الذي ألف كتاب «الإيضاح» ورفعه إليه^(٣).

وولي الملك بعد عضد الدولة ابنه أبو كالبيجار المزري بان الملقب صمصام الدولة الذي اجتمع القواد بعد وفاة أبيه على بيته. وكان إخونه وبنو أعمامه متفرقين في الولايات: فأخوه شرف الدولة أبو الفوارس شهزيل بن عضد الدولة «بفارس»، وعمته «مؤيد الدولة أبو منصور بوه» بجرجان.

وقد مكث صمصام الدولة قائماً بأمر العراق في جزء مضطرب من جراء

(١) تاريخ الأمم الإسلامية ٣٩٦/٣ .

(٢) أبو الطيب أحمد بن حسن المتنبي، ولد بالكرفة من أبوين فقيرين، ولما ظهرت مخايل ذاته سافر به أبوه وهو صغير إلى الشام، بردده في القبائل، وسلمه إلى المكاتب، وعلام نبوغه ناطقة بفضله. توفي مقتولاً سنة ٣٥٤ هـ. (المختار من تاريخ الأدب العربي ١٠٣/١).

(٣) تاريخ العرب ٦١١/٢ .

خلاف أخيه شرف الدولة عليه، واستيلاء الأكراد على بلاد الموصل، فانتهز الفرصة أخوه شرف الدولة صاحب فارس، وتجهز بريد الاستيلاء على الأهواز وال العراق، فسار بجيشه سنة ٣٧٥ هـ فاستولى على الأهواز من يد أخيه «أبي الحسن الملقب بناج الدولة» ثم سار إلى البصرة فملكها، وأصطلح الأخوان شرف الدولة وصمصام الدولة على أن يخطب لشرف الدولة بالعراق، وسيرت إليه الخلع من الطائع لله، فلما وردت عليه الرسل بذلك ليحلفوه رجع عن الصلح، وسار إلى واسط فملكها، واتسع الخرق على صمصام الدولة وشعب عليه الجندي، فقر رأيه على اللحاق بأخيه والدولة في طاعته، فسار إليه، وقبض عليه شرف الدولة، وسار إلى بغداد فدخلها في رمضان سنة ٣٦٧ هـ. وانتهت مدة صمصام الدولة بالعراق ومقدارها ثلاثة سنين وأحد عشر شهراً.

وفي عهد صمصام الدولة توفي عمّه «مؤيد الدولة» بويه بن ركن الدولة صاحب جرجان، وتولى أخوه فخر الدولة علي بن ركن الدولة على بلاده باختيار القواد، والوزير الكبير «الصاحب ابن عباد».

ونقف عند هذا من أخباربني بويه، لنطيل الحديث عن أبيينا «الصاحب بن عباد»، ولكن وجوب علينا أن نشير إلى عنايةبني بويه بالعلم والأدب، وحبهم للعلماء والأدباء، على الرغم من الأحداث والاضطرابات التي وقعت في عصرهم.

٨- أدب بنى بويه:

كان بنو بويه يحبن العلم والأدب، ولا يستكتبون إلا

العلماء والشعراء والكتاب، فكان أشهر أدباء ذلك العصر من وزرائهم أو عمالهم أو قضاياهم أو كتاباتهم، كابن العميد، والصاحب ابن عباد، وسابور ابن أردشير.. فضلاً عن الأدباء من العمال والقضاة وكتاب الدولة. على أن ملوك آل بويه أنفسهم اشتهر منهم غير واحد في الأدب والشعر^(١).

وأشهر بنى بويه في ذلك عضد الدولة المتوفى سنة ٥٣٧هـ، وكان كما يقول الشاعري^(٢) على ما مكن له في الأرض، وجعل إليه من أزمة البسط والقبض، وخص به من رفعة الشأن، وأوتى من سعة السلطان يتفرغ للأدب، ويتساير بالكتب، ويؤثر مجالسة الأدباء على منادمة الأمراء، ويقول شرعاً كثيراً.. ووصف الصاحب ابن عباد بعض شعره في قوله: «وأما قصيدة مولانا فقد جاءت ومعها عزة الملك، وعليها رواه الصدق، وفيها سيماء العلم، وعندها لسان المجد، ولها صيال الحق».. وفي قوله: «الأغر وإذا فاض بحر العلم على لسان الشعر أن ينتج ما لا عن وقعت على مثله، ولا أذن سمعت بشبهه».. و قوله «لو استحق شعر أن يبعد لعذوبة مناهله، وجلاة فائله، ل كانت قصيده هي: ألا إني اتخذتها عند امتناع ذلك قبلة أوجه إليها صلوات التعظيم، وأقف عليها طواف الإجلال والتكريم».. وفي قوله: «شعر قد حبس خدمته على فكره، ووقف كيف شاء على أمره، فهو يكتب في غرة الدهر، وبشدخ جبهتي الشمس والبدر» وقال أبو بكر الخوارزمي: كان ينادم عضد الدولة بعض الأدباء الظرفاء، وبمحاضر بالأوصاف والتشبيهات، ولا يحضر شيء من الطعام والشراب وألاتهما إلا وأنشد فيها لنفسه أو لغيره شرعاً حسناً. فبينما هو ذات يوم معه على

(١) جرجي زيدان «تاريخ آداب اللغة العربية» ٢٢٤/٢.

(٢) نهضة الدهر للشاعري ٢١٦/٢.

المائدة ينشد كعادته «بهرة أرز يطبع باللبن والسمن» فنظر عضد الدولة
كالآمر إلهان بصفها، فارتاج عليه، وغلبه سكت معه خجل، فارتجل
عضد الدولة وقال:

بهرة تعجز عن وصفها
ما مدعى الأوصاف بالزور
لآلئ في الجام مجلوة
كأنها في ماء كافور

ومن شعره في وصف الخبري^(١):

طيب رائحة من نفحة الخبري
إذا ترقى جلباب الدياجير
كأنما رش بالماورد أو عبقت
فيه دواخن ند عند تبخير
صفر وحر وبيض من دنانير

وألف له أبو علي الفارسي كتاب الإيضاح والتكميل على النحو،
وقصده فحول الشعرا في عصره كالمتبي والسلامي وغيرهما.

ومن شفфе بالشعر أنه تمنى أن يكون هو المصطوب بدل ابن بقية
الوزير، لتقال فيه قصيدة محمد بن عمران الأنباري التي مطلعها:

علق في الحياة وفي الممات لحق أنت إحدى المعجزات

ومن نكاته الأدبية أن «أفتکن التركی» صاحب دمشق كتب إليه: «إن
الشام قد صفا وصار في يدي.. وإن قويتي بالأموال والعدد حاربت القوم
في مستقرهم» فكتب عضد الدولة جوابه كلمات متشابهة في الخط لا

(١) نهات ذو زهر ععن الرائحة.

تقراً إلاّ بعد الشكل والنقط والضبط وهي «غزوك عزك، فصار قصار ذلك
ذلك، فاختش فاحش فعلك، فعلك بهذا تهدا»

ومن آداببني بوه وأشعرهم عز الدولة أبو منصور بختيار ابن معز
الدولة، ومن شعره:

تحبّي الندامي بريحانها
عقاراً بكأبي كأجفانها
نجرّر ريطاً^(١) كقضبانها

فيما حبذا روضنا نرجس
شرينا عليها كأهدافنا
ومسنا من السكر ما بيّنا

ومن خمر ياته قوله:

في صحن دجلة واعص زجر الزاجر
درّاً نثيراً بين نظم جواهر
بدلال معشوق ونخوة شاطر
مثل القیان رقصن حول الزامر

اشرب على قطر السماء القاطر
مشمولة أبدى المزاج بكأسها
من كف أغيد بستبيك إذا مشى
والسماء ما بين الغصون مصفق

ومن شعره الغزلي:

وحبك غايتي والشوق زادي
سواد في سواد في سواد

وفاؤك لازم مكنون سري
وحالك في عذارك في الليالي

ومنهم تاج الدولة بن عضد الدولة، ويقال إنه كان آدب آل بوه

(١) الربط جمع ربط وهي الملاحة اذا كانت نقطمة واحدة ولم تكن للفون.

وأشعرهم وأكرهم، وكان يلي الأهواء، فأدركه حرقه الأدب، فأدلت إلى نكتبه وحبسه من جهة أخيه أبي الفوارس وكان شعره رائقاً عذباً جميلاً، ومنه قوله:

وأبدي شعاع الشمس لما نكلما
لدى الروض يستعلى قضيباً منعاً
عذاراً من الكافور والمسك أسمحا^(١)
فعلمته من سحره فتعلمتا
فلما اثنى علينا ووَدَعْ أظللما

سلام على طيف ألم فسلمَا
بها فبدا من وجده البدر طالعاً
وقد أرسلت أبدي العذاري بخذه
وأحسب هارونا أطاف بعرفه
ألم هنا في دامس الليل فانجللى

وأنشد له بديع الزمان الهمذاني هذين البيتين:
وأعقب بالحسني من الحبس والأسر
ومن لي بما أنفقت في الحبس من عمرى

هب الدهر أرضاني وأتعب صرفه
 فمن لي بأيام الشباب التي مضت

من المعدة بالدني
ماض رقبق الشفرة
منروطة بليلة
في الدجى ومقلتى
نحر فتاة طفلة
وفعل بعض إخوتى

ومن شعره الفاخر الحماسي:
الاشففية على تى
وصارم سهند
ولبلة أحبيتها
كائنا نجم الشريـا
جوهرتا عقد على
أفكـر فـي بنـي أبـى

(١) العذاري جمع عذراء وهي البكر، والعذار جانب اللحمة، واللحمة السوداء، والأسماء الأسود.

فَأَيْنَ هُمْ نَحْنُ
 يَوْمَ وَاسِطَ الْبَصَرَةِ
 سَلِيلَ تَاجِ الْمَلَةِ
 عَنْ أَقْلَيلٍ كَبَّتْنِي
 يَمْلِكُ كُلَّ بَلْدَةٍ
 مَوَاكِبُ مَنْ غَلَّمْتِي
 رَبُّ السَّمَاوَاتِ نَصَرْتِي

نَظَنْتُ أَنِّي أَحْمَلُ الضَّبْعَ
 تَفَنَّعْ بِالْأَهْوازِ لِي
 لَسْتُ بِنَاجِ الدُّولَةِ
 إِنْ لَمْ تَزَرْ بَغْدَادَ بِي
 وَعَسْكَرَ عَرَمَرَمَ
 حَشَوْ الْجَبَالَ وَالْفَلَاءَ
 نَصَرْتُهُمْ مَنِي وَمَنْ

وَمِنْ قَوْلِهِ فِي النَّكَبَةِ:

لَا أَسْتَرِيعُ مِنَ الْأَحْرَانِ وَالْفَكْرِ
 مِنَ الزَّمَانِ رَمَانِي الْدَّهْرُ بِالْغَيْرِ
 بَدَلتُ بَعْدَ صَفَاءِ الْعِيشِ بِالْكَدْرِ

حَتَّى مَتِي نَكَبَاتُ الدَّهْرِ تَقْصِدُنِي
 إِذَا أَقُولُ مُضِيَّ مَا كَنْتُ أَحْذَرُهُ
 فَحُسْبَى اللَّهُ فِي كُلِّ الْأَمْرِ فَقَدْ

وَيَكْفِي هَذَا الْقَدْرُ مِنَ الْإِسْتِشَاهَدِ لِهَذَا الشِّعْرِ الرَّائِعِ الْجَمِيلِ، يَتَفَجَّرُ
 مِنْ شَاعِرِيَّةِ مُطَبَّوِعَةٍ، وَمِنْ شَعَرَاءَ بَنِي بُوْيَهُ أَبُو الْعَبَّاسِ خُسْرَوْبَنْ فِيروزْ بَنْ
 رَكْنِ الدُّولَةِ، أَنْشَدَ لَهُ الشَّعَالِيُّ فِي الْيَتِيمَةِ هَذِهِ الْأَبْيَاتِ مِنْ خَمْرَيَّاتِهِ:

أَدْرِ الْكَأسَ عَالِيَا
 أَتَهَا السَّاقِي لِنَطَرِبَ
 فِي فَمِ النَّدْمَانِ تَغْرِبَ^(۱)

أَدْرِ الْكَأسَ عَالِيَا
 أَتَهَا السَّاقِي لِنَطَرِبَ
 فِي فَمِ شَمْوَلٍ^(۲) مِثْلِ كَأسَ

(۱) الشَّمْوَلُ: الْخَمْرُ.

(۲) الْكَبَّةُ: بفتح الكاف وضمها وتشديد الباء الدفعية في القتال والجري، والحملة في الحرب، والزحام، وأفلات الحبل.

فحكت حين تجلت
 قمراً يلثم كوكب
 ورد خديمه جنبي
 لكن الناطور عقرب^(١)
 فإذا مالدغت فالر
 يسق درياق مجرب^(٢)
 ولا شك أن ملوكاً هذا أدبهم، وتلك آثار شاعرية لهم، لجدير بالأدب أن
 يزدهر في دولتهم، وأن يعزّ بنصرتهم، وأن يطلب الزلفى به إليهم، كل
 صاحب موهبة وفن، وهكذا كان.

٩- أخلاق الصاحب:

لعل أوضح أخلاق الصاحب وأبرزها ذلك الخلق الذي أجمع عليه
 الذين عاشروه والذين اتصلوا به، والذين سمعوا منه وتحدثوا إليه، ونقلوا
 أخباره. قالوا إنـه كريم المحبـت والمنـشـأ والتـربية، وصـاحـب ثـقـافـة واسـعـة في
 الفـنـ والأـدـبـ، وـفـدـ كـانـ كـريـماـ فـيـ بـيـتـهـ، رـفـعاـ فـيـ عـلـمـهـ وـأـدـبـهـ، فـكـانـ أـبـوـهـ
 «الأـمـيـنـ» عـالـمـاـ وـوزـيرـاـ، وـدـرـجـ الصـاحـبـ عـلـىـ بـاسـطـ النـعـمةـ، وـمـاـ بـالـكـ بـنـ
 كـانـ تـعـطـيـهـ أـمـهـ كـلـ يـوـمـ وـهـرـ ذـاهـبـ لـتـحـصـيلـ الـعـلـمـ دـيـنـارـاـ وـدـرـهـماـ هـذـاـ
 لـلـنـفـقـةـ وـذـاكـ لـلـصـدـقـةـ عـلـىـ أـوـلـ فـقـيرـ يـلـقـاهـ، فـكـانـ كـمـاـ قـالـ عـنـ نـفـسـهـ:

لـسـتـ أـسـتـغـنـمـ الـكـثـيرـ فـطـبـعـيـ قولـ «خذـ» لـبـسـ مـذـهـبـيـ قولـ «هـاتـ»!
 وـمـاـ بـالـكـ بـنـ يـصـفـهـ أـسـتـاذـهـ أـبـوـ الـفـضـلـ بـنـ الـعـمـيدـ بـأنـهـ «سيـدـ» ويـخـاطـبهـ
 بـقولـهـ «مـوـلـايـ»، وـإـنـ تـعـدـتـ معـانـيـ «الـمـوـلـايـ»، فـإـنـهـ يـذـكـرـهـ فـيـ مـقـامـ التـعـظـيمـ

(١) الناطور والناطور حافظ الكرم.

(٢) الدریاق - بالدال - والتریاق - بالباء - بالكسر فيما دواء السرور، وهو فارسي معرب.

والتقدير! وما بالك بمن يصر على الاعتذار أمام إصرار ركن الدولة على أن يكون مؤدب ولده، ومدرّبا له على شؤون السياسية والتدبير؟

وما بالك بمن يقال له إنه لن يعرض على أي اقتراح يقترحه، أو أي شرط يشترطه من الأمير الكبير أو من وزير الخطير؟ لم يكن شيء من ذلك إلا لئلا عرف عن الصاحب من الترفع والإباء، مع ما وهب من سائر الأسباب التي تدعو إلى إثارة والحرص عليه.

ومن ثم عاش الصاحب ميّجلاً متعزّزاً بفضله وعلمه وأدبه، مشهورة أمجاده وصناعته، لأنّه كان كما قال أبو سعيد الرستمي:

الصاحب العالمي العنائى صاحبى	في النائبات وعدتني وعندادى
ورث الوزارة كابرأ عن كابر	وصوله الاسناد بالاسناد
بروى عن العباس عباد وزرا	رته واسماعيل عن عباد
شرف كعقد الدر واصل بعضه	بعضأ كأنبوب القنا المناد

وإذا عرف ذلك الخلق فيه، وكان له أهلاً، وبه جديراً، فإن ذلك الخلق لم يزعج أحداً من سادته ومواليه، بل كانوا يرون مظاهر استعلاته، فلا يرون في ذلك غضاضة، ولم يسمع عن واحد منهم أنه كان ينكر على الصاحب ما يراه فيه من كبرباء واعتداد بالنفس، فلم يكن الأمر أمر منصب يتولاه، ويتولى غيره منصباً أرقى منه، أو منصباً دونه، فيتصاغر أمام من هو أعلى منه ويتساءل، ثم يحلّ عقدته النفسية أمام من يصغرونه في المنصب والوظيفة، كما هي شيمة شاغلي المناصب والوظائف، الذين يقدّر كل واحد على حساب درجة من الوظيفة والمنصب، وينظر كل واحد منهم

إلى من هم فوقه وإلى من هم دونه على هذا الأساس، ويقيسهم على حسب هذا القياس.

ولكن الصاحب لم يكن كذلك، هل كان هذا الاعتداد خلقاً فيه، وطبعاً أصيلاً من طبائعه المتميزة، فهو كبير مع الصغار، وكبير أيضاً مع الكبار، ولكنها الكبراء المترفة لا الكبراء البغيضة المتعجرفة، هل إننا لنراه في كثير من المواقف يتلطف لمن هم دونه، وبكثير من شأنهم، ويعلي من نفوسهم، واستطاع الصاحب بذلك أن يجعل للأدب دولة، وللأدباء مقاماً ودولة.

ومن آيات هذا الاعتدار ما ذكر الورير أبو سعد منصور بن الحسين الآبي في تاريخه من جلالة قدر الصاحب، وعظم قدره في النفوس أنه لما توفيت أم كافي الكفافة . الصاحب . بأصبهان، وورد عليه الخبر، فجلس للعزبة يوم الخميس للنصف من محرم سنة أربعاً وثمانين وثلاثمائة، وركب إليه سلطانه، وولي نعمته فخر الدولة ابن ركن الدولة معزياً، ونزل وجلس عنده طويلاً يعزّيه ويسكن منه، وبسط الكلام معه بالعربية، وكان يقصّ بها، فسمعته يقول حين أراد القيام: «أيها الصاحب، هذا جرح لا يندمل!»

فأما سائر الأمراء والقادة، مثل منوجهر بن قابوس ملك الجبل، وفولاد ابن مانادر أحد ملوك الديلم، وأبي العباس الفيروزان بن خالد فخر الدولة، وغيرهم من الأكابر والأمثال، فإنهم كانوا يحضرون حفاة حشراً.

وكان كل واحد منهم إذا وقعت عينه على الصاحب قتل الأرض، ثم
نوالى بعد ذلك إلى أن يقرب منه، ويأمره بالجلوس في مجلس، وما كان الصاحب
يتحرك ولا يستوفر^(١) لأحد، بل كان جالساً على عادته في غير أيام العزية.

فلما أراد القيام من المعزى بعد الثالث كان أول من أمر أن يقدم إليه
اللقاء من هجر بن قابوس، فإنه قال: يحمل إلى أبي منصور ما يلبسه، فقدم
إليه ومنع الخروج من الدار حافياً.

ثم قدم الحجاب والحاشية اللقاء إلى الجماعة، فتعجب فولاد بن مانادر
والفولاد دريدبه عليه ذلك، وقالوا مير من هجر من بين الجماعة، فاحتاج
الصاحب بيته العظيم، ورياسته القديمة^(٢).

وخطب كافي الكفأة ابنه أبي الفضل الداعي لسبعله^(٣) عباد بن الحسين،
ووقع الأملاك^(٤) في داره يوم الخميس لأربع خلون من شهر ربیع الأول سنة
أربعاً وثمانين وثلاثمائة، وكان يوماً عظيماً احتفل فيه كافي الكفأة، ونشر
من الدنانير والدرارهم شيئاً كثيراً، ولذلك أندل له فخر الدولة على يدي
حجابه الكبير إلى هناك من النار^(٥) ما زاد على مائة طبق عيناً وورقاً^(٦).

(١) استوفر في قعدته إذا قعد فموداً متسبباً غير مطعن..

(٢) معجم الأدباء ٢٢٩/٦ .

(٣) السبط واحد الاسباط، وهم ولد الولد، وعباد ابن بنت الصاحب.

(٤) الأملاك: التربيع.

(٥) النار بالكسر اسم نما ينثر، وهو هنا الدنانير والدرارهم.

(٦) العين الدهنار، أو المال. والورق الدرارهم المضروبة.

وحضر الفولاذ دريدها بأسرهم، فإن الابنة المزوجة كانت ابنة ديكونة بنت الحسن بن الفيروزان خالة فخر الدولة، وكان القوم أخوها.

وقد أضافهم الصاحب، ونصبت مائدة عظيمة في بيت طوله لا يزيد على خمسين ذراعاً، وكانت بطول البيت، وأجلس عليه ستة أنفس، وكان فولاذ بن مانادر وكباتن بن بلقاسم في الصدر، وبجنب فولاذ أبو جعفر بن الثائر العلوي، وبجنبه الآخر أبو القاسم ابن القاضي العلوي، ودون أحد العلوين كاكبي بن بشكرزاد، وعبد الملك بن ما كان للخدمة. ووقف كافي الكفأة أيضاً ساعة، ووقف جميع أكابر الكاتب والمحاجب مثل الرئيس أبي العباس أحمد بن إبراهيم الضبي، وأبي الحسين العارضي، وأخيه أبي علي وابنه أبي الفضل، وأبي عمران الحاجب، وغيرهم، إلى أن فرغ القوم من الأكل، ثم أكل هؤلاء مع الصاحب على مائدة مفردة.. وأما قاضي القضاة والأشراف والعدول فإنهم أطعموا على مائدة أخرى في بيت آخر.

وقد كان يحضر إلى دار الصاحب أعيان الدولة وأبناء الملوك والأمراء والقادات، وسائر من سواهم من الرعماء والكتار، مثل أولاد مؤتمن الدولة، وأبن عز الدولة، ومنوجه بن قابوس بن شمكير، وأبي الحاجاج بن ظهير الدولة، وأسفهيد بن أسفار، وحسن بن شمكير، وفولاذ بن مانادر، ونصر ابن الحسن ابن الفيروزان، وأبي العباس الفيروزان بن الحسن الفيروزان، وكباتن بن بلقاسم بن الفيروزان، وحيدر بن وهسودان، وكيخسرو بن المرزيزان بن أسلار، وجستان بن نوح بن وهسودان، وشيرزيل بن سلار ابن شيرزيل، وكان في بد كل واحد من هؤلاء من الإنقطاع ما يبلغ ارتفاعه خمسين ألف دينار وما دونها إلى عشرين ألف دينار، ومن أكابر القراد ما

بطول تعدادهم... كانوا يحضرون باب داره، فيقفون على دواهيم مطربين، لا يتكلّم واحد منهم هيبة وإعظاماً لوضعه، إلى أن يخرج أحد خلفاء حجاجه، فإذاًن بعض أكابرهم، ويصرفهم جملة، فكان من يؤذن له في الدخول يظن أنه قد بلغ الآمال، ونال الفوز بالدنيا والآخرة، فرحاً ومسرةً وشرفاً وتعظيماً.

فإذا حصل في الدار، وأذن له في الدخول إلى مجلسه قبل الأرض عند وقوع بصره على الصاحب ثلث مراتب أو أربعاء، إلى أن يقرب منه، فيجلس من كانت رتبته الجلوس إلى أن يقضي كل واحد منهم وطهه من خدمته، ثم ينصرف بعد أن يقبل الأرض أيضاً مراراً.

ولم يكن الصاحب يقوم لأحد من الناس، ولا يشير إلى القيام، ولا يطمع منه أحد في ذلك.^(١)

وبلغت هيبة الصاحب في الصدور، ومخاوفه في القلوب، وحشمتة عند الصغير والكبير، والبعيد والقريب، إلى درجة أن كان صاحبه فخر الدولة ينقبض عن كثير مما يريده بسببه، ويمسك عيناً تشره إليه نفسه لمكانه. وقد ظهر ذلك للناس بعد موت الصاحب، وانبساط فخر الدولة فيما لم يكن من عادته، فعلم أنه كان يزعم نفسه^(٢) لجشمته، ثم كان يحل محل الوالد إكراماً وإعظاماً، وبخاطب بالصاحب شفاهها وكتابها.

فأما أكابر الدولة فكان الواحد منهم إذا رأى أحد حجاجه بل أحد

(١) معجم الأدباء ٢٤٦/٦.

(٢) أي يمنع نفسه من الانبساط، بقال زم البعير أي خطمه.

الأصغر من حاشيته فإن فرائصه^(١) كانت ترتعد، وجوانحه كانت تصطفق^(٢)، إلى أن يعلم ما يريده منه، ويختاطب به.

وقد نظرت إلى الصاحب امرأة من أحد أصحاب فولاد بن مانادر، وذكرت أنه ينزع عنها في حق لها، فما زاد الصاحب على أن التفت إلى فولاد، وكان في موكيه يسير خلفه، فبهرت وتحيرت، وارتعد ووقف، ولم يبح إلى أن سار كافي الكفارة، ثم أرسل إلى المرأة من أرضها، وأزال ظلامتها، ومثل هذا كثير يعلو الكتاب ببعضه، فكيف يتسع لكتله^(٣).

وروى ياقوت عن أبي نصر بن خواشادة أنه قال: ما غبطت أحداً على منزلة كما غبطت الصاحب أبا القاسم بن عباد، فإننا كنا مقيمين بظاهر جرجان مع مؤيد الدولة على حرب الخراسانية، فدخل الصاحب إلى داره في البلد آخرتها يوماً لحضور المجلس الذي يعقده لأهل العلم، وتحته دابة رهواه^(٤)، وقد أرسل عنانه، فرأيت وجوه الديلم وأكابرهم من أولاد الأمռاء يمدون بين يديه، كما تعدو الركابية^(٥).

وكان عضد الدولة إذا خاطب الصاحب في مجلس بحضره غيره لا يشرك مع الصاحب فيه أحداً^(٦). وكان الصاحب لا يستأذن على فخر

(١) الفرائص جمع فريضة، وهي لحمة بين الجنب والكتف، أو عصب الرقبة وعروقها، لأنها هي التي تدور في الغضب.

(٢) اصطفت جوانحه اهتزت واضطربت.

(٣) معجم الأدباء ٢٤٨/٦.

(٤) دابة رهواه: تسمى سراً على مهل.

(٥) أي الساترون في الركب.

(٦) معجم الأدباء ٢٨٠/٦.

الدولة وهو في مجلس الأئس والانبساط إلا انتقل إلى مجلس الحشمة، فإذا ذن له فيه. قال الصاحب: ما أذكر أنه . فخر الدولة . تبذل بين يديه وما زحني قط إلا مرة واحدة، فإنه قال لي في شجون الحديث: بلغني أنك تقول: «المذهب الاعتزال، و... الرجال»^(١)

فأظهرت الكراهة لانبساطه، وقلت: هنا من الجد ما لا تفرغ معه للهزل، ونهضت كالمناضب، فما زال يعتذر إلى مراسله، حتى عاودت مجلسه، ولم يعد بعدها لما يجري مجرى الهزل^(٢).

١٠. كتابة الصاحب:

قال أبو حيان التوحيدي^(٣): قلت لأبي عبد الكاتب النصراني ببغداد، وكان سهل البلاغة، حلو اللفظ، حسن الاقتضاب، غريب الإشارة، مليح الفصل والوصل. كيف ترى كتابة ابن عباد؟ فقال: هي شوهاء، فيها شيء في غاية التقبع، وفيها شيء في غاية الركاكة، وبينهما فتور راكم بمذاهب المعلمين الحمقى المتعاقلين أشبه منها بمذاهب السلف الأولين من الكتاب وأصحاب الدواوين. قال: السجع الذي يلهمج به هو مما يقع في الكلام، ولكن ينبغي أن يكون كالعلّاز في الثوب، والصنفة^(٤) في الرداء، والخط في القصب^(٥)، والملح في الطعام، والخال في الوجه، ولو كان

(١) موضع النقطة كلمتان نابتان.

(٢) بيته المدر ١٩٩/٣.

(٣) انظر مثالب الوزرين لأبي حيان التوحيدي، تحقيق د: إبراهيم الكيلاني ص ٩٢، ٩٤.

(٤) الصنفة: حاشية الرداء أو الثوب أو جانبه الذي لا هدب له أو الذي فيه هدب.

(٥) القصب: ثياب ناعمة كثبان.

الوجه كله حالاً لكان مقلباً. قال: وبديهه في هذا الفن لا يستر ركاكته في
سائر فنون الكلام، فإن فنون الكلام محصلة على التقريب بين البد
والسجع، والوزن وما يسمى قوم تجنيناً وتطبيقاً

قال: ومنها شيء يجب أن يسمى المسلسل وأمثلته في كلام أبي
عثمان موجودة. ثم قال: والذي ينبغي أن يهجز رأساً، ويرغب عنه جملة
التكلف والإلحاد، واستعمال الغريب والعويس، وما يستهلك المعنى أو
يفسده أو يحيله، وينبغي أن يكون الغرض الأول في صحة المعنى،
والغرض الثاني في تخفيض اللفظ، والغرض الثالث في تسهيل النظم وحلوة
التأليف، واحتلال الرونق، والاقتصاد في المواخاة، واستدامة الحال
ليستمر الثاني على الأول، والثالث على الثاني، وأن تتوقى الفضاء الذي
يعرض بين الفصل والفصل. قلت: ما معنى الفضاء؟ قال: عدم الرباط بين
المتقدم والمتأخر وهو النبر العارض في النفس عند سماعه وتحصيله قال
والهمجنة التي ليس بعدها هجنة، والركالة التي ليس فوقها ركاكة الولوع
بالغرب وما يشكل فيه الإعراب ويتجاذبه التأويل، فإن هذا وما شاكله
كلفة على النفس عند سماعه، ومؤونة على الطبع عند تخييره، ومشقة على
اللسان عند اللفظ به.

١١. الأسلوب المثالي:

ثم قال^(١): فخير الكلام على هذا التصفح والتحصيل ما أنهى العقل
بالحقيقة، وساعدته اللفظ بالرقابة، وكان له سهولة في السمع وريح في

(١) انظر المصدر السابق ص: ٩٥

النفس، وعذوبة في القلب، وروح في الصدر، إذا ورد لم يحجب، وإذا صدر لم يُنس، وإذا طال لم يُمْلِي، وإذا قصر لم يُحقر، له غنى كفنج العين، ودلّ كدلّ الحبيب، ولذة كلذة الغناء، وانقياد كانقياد الذليل، وتبه كبه العزيز، وجمش كجمش^(١) الغانية، ووقار كوفار الشيخ، وحلارة كحلارة العافية، ولين كلين الصبيب^(٢)، وأخذ كأخذ الخمر، وولوج كولوج النسيم، ووقوع كوقع القطر، وربع كربع العطر، واستواء كاستواء السطر، وسبك كسبك التبر، يجمع لك بين الصحة والبهجة وال تمام، فاما صحته: فمن جهة شهادة العقل بالصواب، وأما بهجته: فمن جهة جوهر اللفظ، واعتدال القسمة، وأما تمامه: فمن جهة النظم الذي يستعير من النفس شغفها ويستثير من الروح كلفها.

١٢- أنواع الكتاب:

ثم قال^(٣). قال ابن الربيع: الكتاب سبعة: الكامل، والأعزل، والمبعهم، والرقاعي، والمخليل، والمخلط، والسكثت^(٤).

فاما الكامل: فهو الذي له في الانشاء والإملاء خط.

والأعزل: الذي يُمْلِي ولا يكتب.

(١) الجمش: الصوت الخفي.

(٢) الصبيب: المصيرب والسل العائد.

(٣) المصدر السابق.

(٤) السكثت: آخر خيل العلة، وإنما قيل له سكثت لما يعلو صاحبه من الذل والسكوت.

والمبهم: الذي يكتب ولا يُملي.

والرفاعي: الذي يبلغ في الرقاع حاجته، ولا يصلح لغطّم الكتابة.
والمخيل: الذي له عارضة، وبيان، ورواية، وإنشاء، ويعرف بالأداب،
ولا طبع له في الكتابة، وإذا كان عاقلاً صلحاً لمنادمة الملوك.

والملحق: الذي تُرى له في الكتاب الواحد بлагة جديدة، وقدامة^(١)
عجيبة.

والشكيث: المتخلّف المتبدل، وربما جاء بالشيء المحتمل إذا
تعنى^(٢) فيه.

١٣- مكانة الصاحب:

قلت له^(٣): فمن أئمّهم ابن عباد؟ قال: هو مشكل، لا يجوز أن
تهضمه فتضنه في أسفل ساقلين، ولا يجوز أن تغلط فيه فترفعه إلى
أعلى علبيين، ثم تضنه بين هذين أين شئت، على أنه على كل حال
جبلني! قلت له: قد استمعت قوله بما لو كان تصنيفًا لك لساغ وبقي
 تمامه في كلمة، هذا وقت المسألة عنها ومعرفة الحال فيها، قال: قُلْ
 فقد أسترسلنا في الحديث وتبتقنا كل ضمير.

(١) الفدم: المعنى عن الكلام في تقل ورخاوة وقلة فهم وفطنة.

(٢) هنا يعني: بذلك مشقة.

(٣) انظر نفس المصدر المذكور سابقاً.

٤٠١- رأي في القرآن:

قلت^(١): كيف ترى كتابنا، أعني القرآن، وأنت رجل قد أشرفت على غاية هذا الباب، واستومنت جميع ما فيه؟ قال: ذاك كلام ليس فيه أثر للصنعة، ولا علامة للتتكلف، وهو كلام منسكب انسكاباً، وجار جرياً، يزيد لطفه على الطبيع بقدر ما يزيد الطبيع على التصنيع، قليله كثير، وكثيره غزير، ومعناه أقوم من لفظه، ولنفعه أرشق من وزنه، وزونه أعدل من نظمه، ونظمه أحلى من ثراه، ومجموعه أبهى من مفرقه، ومفرقه أظرف من مجموعه، وبعده أغرب من كله، وكله أعجب من بعضه، وهو شيء يستوي فيه تعجب الجاهل وتخيير العالم، ويستعلي الذهن، ويستغرق الفهم، ويحجب الرؤية عن الإدراك، ويردّها إلى البديهة في التسليم. وهذا يصح ويدين لمن كان ذا أداء تامة، وعقل ثابت، وعلم غزير وطبع سجيح^(٢)، وبصر بالجوهر صحيح، ومعرفة بالصورة والصورة، وبصر وتمييز بين الحال والحال، ورفق^(٣) فيما تريده البيان عنه، لا تحمله ما لا يطيق، ولا تحتمل له ما لا يجب، ويكون في جميع ذلك كالطيب الحاذق، والناصح المشفق.

قلت له: أئمباً يكون هذا كله، وما هو عتبك عندك داعياً إلى الإيمان به، والتصديق لصاحبه؟ فقال: أثراني لا أنصح لنفسي في قضاء الحق عنها

(١) السائل: أبو حيان التوحيدي.

(٢) السجيح: اللبن السهل.

(٣) الرفق بالذكر: ما إمعنون به.

مجتبلاً للسعادة، كما أنسح لها في اقتضاء الحق لها مكتسباً للزيادة؟ بلى
والله! ولكن وراء هذا ما يُشكّل، ويُضلّل، ويُطّول، ويميل.

وكان هذا الرجل من يدؤن كلامه أبي هلال الصابري^(١)، [قال
يَنْصَحُ] صاحباً له: يا هذا انفع صاحبك على كل حال وإن ضررك، وزينة
وان عرقك، وحسن به ظئنك وإن غرتك.

١٥- ولع الصاحب بالسجع:

وممّا يدلّ على ولوع ابن عباد بالشجع، ومجاوزة الحدّ فيه بالإفراط، قوله
يَوْمًا: حدثني أبو علي بن باش، وكان من سادة الناش، جعل السين شيئاً.

وممّا في الحديث وقال: هذه لغة، وكذب، وكان كذوباً. وكان أبو
مالك مرة بين يديه، فقال له: إنما أنت خطٌّ فقط، وثبتت أطرافه
بحركاته تخثناً وتائناً. وقال عبد الله المعلم وقد أنشده: يا عبد الله أنت
طوبى النفس، عنق القوس، شديد المرس. وقال لشبيخ من خراسان في شيءٍ
جري: والله لولا شيءٍ لقطعتك تقطيعاً، وبضمتك تبضيعاً، ووزعتك توزيعاً،
ومزّعتك تمزيعاً، وجزعتك تجزيعاً، وأدخلتك في حر أمك ثم وقف وقفه
وقال: جميحاً.

وَمُلْعُنُ هَذِهِ الْحَكَايَةِ يَنْتَشِرُ فِي الْكِتَابَةِ، وَبِهَاوَاهَا يَنْقُصُ الْرَوَايَةُ دُونُ

(١) أبو إسحاق إبراهيم بن هلال بن إبراهيم بن زهرون الصابري، ولد سنة ٣١٣هـ. نافحة عصره
في الأدب والإنشاء تولى دواوين الرسائل زمن البوهيميين، كان متعمضاً للدين الصابري، وكان
الصاحب ابن عباد يحبه ويتعصب، توفي سنة ٣٨٣هـ.

مشاهدة الحال، وسماع اللفظ، ولراحة الشكل في التحرك والتنفس والترنح والتهادي، ومدّ اليد، ولئِ العُثُن، وهزُ الرأس والأكتاف، واستعمال جميع الأعضاء والمفاصل.

وقال لابن القصار الفقيه: لو ناظرته، وكان يذهب مذهب القلاسي.
قال: الرجل كلف بالذهب، والكلف لا يفهمك ما يقول استكباراً
عليك، ولا يفهمك ما تقول استحقاراً لك.

١٦- صورة هزلية:

قال أبو حيان التوحيدي في مثالب الورزيرين: وطلع على يوماً في داره، وأنا قاعد في كسر رواق أكتب له شيئاً قد كأدنني به^(١)، فلما أبصرته قمت قائماً، فصاح بحلق مشقوق اقعد فالوراقون أحسن من أن يقوموا لنا، فهممت بكلام فقال لي الزعفراني الشاعر: احمل فإن الرجل رقيق فغلب على الضحك، واستحال الغيظ تعجباً من خفتة وشخفة لأنه قال هذا وقد لوى شدقة، وشنح أنفه، وأمال عنقه، واعتراض في انتصابه، وانتصب في اعتراضه، وخرج في مثل مجانون قد أفلت من دبر جنون. والوصف لا يأتي على كثرة هذه الحال لأن حقائقها لا تدرك إلا باللحظ، ولا يؤتى عليها باللفظ، أفهمها كله من شمائل الرؤساء، وكلام الكبراء، وسيرة أهل العقل والرَّزانة؟ لا والله! وتربأ لمن يقول غير هذا.

والموبيخ له إذا أساء، والمقووم له إذا اعْرَج، لا يسمع إلا: صدَّقَ سيدنا،

(١) كأده بالشيء: كلف به.

وأصحاب مولانا، وما له في الزمان ثان، ولم يُعرف فيما تقدّم له نظير،
 رجل هذه المملكة الواسعة العريضة على ما ترى من التمكّن والاستعلاء
 وهو لا يحصل شيئاً من خراجها وعمارتها، ولا ينظر في مصلحتها
 ومفسدتها، ولا يعرف المختلس منها ولا الضائع بين الناظرين فيها أعمال
 بائرة، وببلاد غامرة، وأموال مُحتاجة، وطبع مستحکم، وضعف غالب،
 وعدو راصل، ووقت فائت بالفرص، وخوف مؤذن بسوء العاقبة، وهو قاعد
 في صدر مجلسه يقول: قال شيخنا أبو علي وأبو هاشم، ثارة يتطلّس
 ويتعتمّ ويتلخّى ويناظر العامة هذا البقال وهذا الخباز، وهذا الخلقاني^(١)،
 وهذا الإسكاف بالفارسية إما بالدرية وإما بالرازية وأما بغيرهما، ويرى أنه
 في شيءٍ منهم، وأنه في نشر مذهب، ونصرة دين، وثارة يناغي هذا الأمر،
 ويعاتب هذا الخادم، وينشد الشاعر البارد الذي يورث الفالج:

أبا يوسف إن العثاني آفة^(٢) على حامليهما فاتخذ لحية قصدا
 ولا تلُكَ مشغوفاً بسحب فصولها ولا تُولِّها إلا الإبادة والمحصدا

وينشد:

سلیمان بن مختار
 التحریرق بالنار
 أو النشر بمنشار
 من رایة بيطرار

قد استوجب في الحكم
 بما طرّل من لحبته
 أو النتف أو الجرز
 وقد صار بها أشهر

(١) أطلق التوب: على والخلقاني: باائع الثواب العتبة.

(٢) العثاني: مفردٌ عثون وهي اللحة.

قال أبو حيان: وسمعت الخعمي الكاتب، كاتب علي بن كامة يقول: ما رأيت في طول عمري، مع علو سنّي، وكثرة تجاري، وشدة تبعي رجلاً أجمع للمخاري والمقابع والرفاعات والجهالات والحسامات والفواحش والخبائث من ابن عباد، أفيض الناس رأياً إذا ارتئى، وأنكّلهم عن الخصم إذا تراءى، وأقلّهم وفاء لمن جعله الله ولتي نعمته، وأوقعهم وجهاً مع كل إنسان، وأحدّهم لساناً بكل خنث وفحش، وأحسدهم لنظير، ولمن دون النظير، وأسعاهم بالفساد على الصغير والكبير، وأخطبهم^(١) على الدين وأصرّهم للMuslimين، وأفجّرهم من بين العالمين، فقلت له: ما الذي يُمْدِه على ما هو فيه، وبأي شيء يطرد له ما هو عليه؟ فقال: لم يرق فيمن فوقه من ينتقد، ولا فيمن دونه من يزاحم، فقد خلا له الجو فهو يَبِضُّ ويَضْفِرُ، ويتمطّي ويَبُوَّغ^(٢)، ويقول سبعاً في ثمان، لم يذل لأحد وذل له كلُّ أحد، وأمر كل إنسان وما نهَا إنسان، وضرع إليه كل محتاج وما احتاج إلى غيره، نشا على البطر والحبون^(٣)، وعلى الخلاعة ذوالجنون، فبهذا وأشباهه فسدت أخلاقه، وساء أدبه، وبذل لسانه، ووقع وجهه، وغلط في نفسه غلطًا شديداً، وأعجب بمربيته إعجاباً بعيداً، وهكذا يفسد كل من فقد المخطيء له إذا أخطأ.

(١) لعلها من الخطب، وهو الأمر المكره.

(٢) باع، بَوْغ: يسط بده ومد باعه.

(٣) رجل أحبن: متflux البطن خلقة أو من داء، وبه حين وقد أحبنه كثرة أكله أو داء اعتراه وخرجت به حبوب وهو دمامله مقبحة.

قال أبو حيان التوحيدي: فإذا ملَّ الشعر قال: قال سعيد بن حميد لأبي هفان: لعن ضرطُك عليك ضرطة لأبلغتك إلى قَبْد^(١)، فقال أبو هفان، زدني أخرى تبلغني مكَّة فلاني صرورة^(٢) أتدرِّي يا أبا فلان ما الصَّرورة؟ وكم لغة فيها، وما أصلها؟.

ويقول: ضرب المتكلَّم على فقحة^(٣) عبادة فضرط، فقال: وَنَحْكَ ما هذا؟ فقال يا أمير المؤمنين خليفة يقرع باب قوم فلا يجيئونه!

ويقول: مَرْءَى عَلَى بْنُ الْحَسَنِ الْعَلَوِيِّ رَجُلٌ عَبَاسِيٌّ مَأْبُونٌ فَقَالَ: مَنْ هَذَا؟ فَقَالَ: هَذَا تَبَشُّرُ الْجَنَّ، فَقَالَ: يَنْبَغِي أَنْ يَقُولَ لِهِ نَعْجَةُ الْإِنْسَانِ!

ويقول: جمع مزبد بين قحبة وصديقتها في بيت فتعاتبا، فأراد أن يجامعها فامتنعت وقالت: ليس هذا موضع ذا، فسمعتها مزبد^(٤) فقال: يا زانية! فأين موضعه؟ أين القبر والمنبر، والله ما تُبَيِّنُ هذا البيت إلَّا من خدر القحاب.

وَلَا وَزِنَ ثَمَنَ خَشْبَه إلَّا مِنْ أَنْهَانَ نَعَالَ اخْتَطَفَتْ فِي شَهْرِ رَمَضَانَ مِنْ

(١) قَبْد: اسم مكان على طريق مكة.

(٢) صرورة: الذي لم يحج.

(٣) الفقحة: حلقة الدر.

(٤) مزبد المديني أبو إسحاق من مشهور أصحاب النوادر والمكافحة والعبث. قال التوسي: عند كلامه عن الجاحظ «إن هزل زاد على مزبد»، معجم الأدباء، ٩٨/١٦، فوات الوفيات.

المساجد، وما اشتريت أرضاً إلا من السرقة، وما أعرف موضعاً أحق بالزنا
فيه منه.

وكان ينشد لابن العجاج^(١) كل سُخْف ويستجده ويعجب به. أنشد
له يوماً:

يسألكني محمد عن أخيه وعنـه وفـد بـلـوتـهـما شـدـيدـا
فـقـلـتـ: كـلاـكـما جـعـسـ ولـكـنـ^(٢) أـخـوكـ الحـقـ أـكـثـرـ مـنـكـ دـوـدـا
وـيـقـولـ: اـمـرـقـ الـقـيـسـ وـالـنـابـغـةـ يـقـصـرـانـ عـنـ هـذـاـ الـفـنـ وـيـنـشـدـ أـيـضـاـ لـهـ

وـمـصـرـفـ أـنـفـاسـ لـبـيـثـ خـادـيرـ^(٣)

تـضـدـرـنـ عـنـ لـهـوـاتـ^(٤) كـلـبـ رـابـضـ^(٥)
ذـيـ لـبـيـةـ غـرـوـيـةـ^(٦) الرـيـاـ^(٧) وـذـيـ
لـحـمـ مـصـلـ^(٨) فـيـ لـعـابـ حـامـضـ
رـثـ الشـيـابـ يـجـرـ مـثـبـثـهـ دـمـاـ
فـكـلـمـاـ شـفـتـاهـ شـفـرـاـ حـائـضـ
لـمـ أـدـرـ مـاـذـاـ قـالـ، إـلـأـ أـنـهـ
ما زـالـ يـنـفـسـ ضـرـسـةـ فـيـ عـارـضـيـ

(١) أبو عبد الله الحسين بن أحمد بن العجاج الكاتب الشاعر الخليع. له ترجمة في معجم الأدباء ٢٠٦/٧، بيتهما الدهر ٢١/٣، شذرات الذهب لابن الصادق ٤٢٦/١.

(٢) جعس: تفترط.

(٣) خدر الأمد في عربته: لرمي.

(٤) لهوات: مفردتها لهأة وهي اللحمة المشرفة على العلق في أقصى سقف الحلق.

(٥) ربضت النابة: بركت.

(٦) غروبة: من غرى، وظر السنن قلبه لرق به من الغرا وهو ما طلى أو ألقى به.

(٧) الري: الرايحة.

(٨) صل اللحم وأصل: أنت.

١٩- أحاديث الصاحب:

قال أبو حيان التوحيدي: ومن أحاديثه السخيفة التي ينتزه عنها الرؤساء
قال: قدم أبو فرعون الأعرابي، وكان يسمى سلمان البصرة، فنظر إلى
بعض آل المهلب على فراش قد فرش له، ووصيفته أدماء كأنها ظبية قائمة
تذبذب عنه، فجعل يحدّج إليها، ويحدّ النظر فقال له صاحبها: أتشتّه بها؟
قال: إِيَّاَنِي خلقتها، قال: فهل لك أن تكشف عما معك بين يدي
وتنكحها وأنا ناظر، فلن فعل ذلك فمهي لك، فلما ألقاها وأخرج مئاعه
كانه عمود البيت وبرك عليها، صاح به الناس زُرْ^(١) زر، فأكثروا عليه
فاستحيا وقتز وولى هارباً والناس في أثره يصيحون فأخذ برأس مئاعه وقال:
فيما لك من أمير جزرت شرًا أقمته حتى إذا اكفهم
واضطربت أعرافه ودرًا عاد إلى وجهه مزورًا
كأنه صاحب ذنب فريا أريد جنًا ويريد بريًا
وما علّمك أن يقال زرًا كأنما ألقى شيشًا مريًا

وحدث أهضأ قال عبادة اختصم الجر والجحرة في الجلدة التي بينهما،
فكان كلّ بدعيها فتقديما إلى الأنور فقال: ليست لأحد كما، قالا: فلمن
هي؟ قال: هي لي إذا دخلت حطّلت عليها رحلي، وإذا خرجت
استرحت عندها من كربلي.

وحكى يوماً عن جحظة قال: كانت لي جارية، فحبّلت، فقلت لها: يا
ملعونه! من أخْبَلْتَكِ؟ قالت: مَنْ غَرَّقَهَا مولايا!

(١) زر القميص: شدّ أزراره وأدخلها في المرى.

قال: وقيل لعِبادَة: لم صار الصُّفْح بالقُزْع على القَفَا تَمِيلًا وفي الجَوْف
خَفِيًّا. قال: لأنَّه يَنْزَلُ على القَفَا جَمْلَة، ويَدْخُلُ الجَوْف تَفَارِيق.

وكان ديدُه السُّخْف والخلاغة والمُجْوَن، والرواية عن مزبد المدنى،
وأبي الحارث جَمِيز^(١) وعياد وجحظة ومن أشباه هؤلاء.

وكان يَصْنَع أحاديث من الفواحش على بَنِي ثَوَابَة ويرويها عنْهُم،
ويسْمِهُم بَهَا، وَكَانَ الْقَوْم مَعَادِينَ مِنْهَا عَلَى مَا حَدَّثَنَا شِيخُ جَلَّ كَرْمَاهُ،
لَهُمْ دِينٌ وَمَرْوَةٌ، وَكَانَ يَتَكَذَّبُ عَلَى الْبَرِيزِيَّيْنَ وَغَيْرِهِمْ، وَكَانَ أَكْثَرُ هَذَا
فِيهِ، وَإِنَّمَا كَانَ يَتَحَدَّثُ بِمِثْلِهِ تَبَرًُّا وَنَزَاهَةً، وَكَانَ أَدْنَى مِنَ الْخَنْزِيرِ، وَلِمُثْلِ
هَذِهِ الْخَحْصَالِ كَتَبَ إِلَيْهِ أَبُو رَاغِب فِتْنَةً مِنْ آلِ أَبِي جَعْفَرِ الْعَتَبِيِّ الْوَزِيرِ
بِخَرَاسَانَ رِسَالَةً هَتَّكَهُ بَهَا، وَإِنَّمَا أَرَوْيَهَا لِتَعْلَمَ أَسِي لَمْ أَنْفَرْدْ بِتَهْجِيَّتِهِ، وَالنَّكِيرُ
عَلَيْهِ، بَلْ كُلُّ حَرُّ كَرِيمٍ، وَكُلُّ دَتَنٍ مَذْكُورٍ، وَكُلُّ ذِي مَرْوَةٍ ظَاهِرَةٌ مَعِي
فِيمَا نَثَوتُ^(٢) عَنْهُ وَكَرْهَتْهُ مِنْهُ، فَإِنَّمَا لَمْ تَعْبُأْ بِمَا تَسْمَعَ مِنِّي فَاعْبُأْ لِعَلِهِ عَنْدَكَ
أَشْفَّ مِنِّي، وَلَا تَتَسْرُّعْ إِلَى غَبَّبِي هَذَا الرَّجُل بِمَا قَدْ دَوَنَهُ حَتَّى يَتَبَيَّنَ الْأُمْرُ
عَلَى حَقِّهِ وَصَدْفَهِ.

٢٠. رسالة أبي راغب العتبى إلى الصاحب:

كتَبَ أَبُو رَاغِبٍ: قَالَ أَبُو حَيَانَ التَّوْحِيدِيُّ: أَصْلَحْتَ اللَّهُ أَبْهَا الرَّجُلَ

(١) جَمِيزٌ: وَهُوَ مِنْ أَرْبَابِ التَّوَادِرِ وَالْمَكَاهَةِ عَاصِرِ الْجَاحِظِ وَدَعْلِ. الْأَغَانِي١/٨٣، الْحَيَوان٢/٨٤، ٢٥/١٩٢٠.

(٢) ثَنَةُ الْحَدِيثِ: حَدَّثَ بِهِ وَأَشَاعَهُ.

لنفسك، فإنك إذا صلحت لنفسك، صلحت لقريبك وبعديك، أما بعد:
فإن بعْدَ صيتك بعثني على تصفح شأنك، وتصفحني لذلك وقفني على
أحوال كرهتها لك، وأنفت منها لمن بلغ درجتك، والعيب منك مضاعف،
واللسان فيك جِوَال، والحقد عليك سريع، ولو لا الحال التي أنت عليها
من القدرة والتعمُّك لكان العذر يناسب عنك، والتوبیخ يتبدّد دونك. وما
أحسن ما قال شاعر عصرك في نظمه:

ولم أر في عيوب الناس شيئاً كنفسي القادرين على التمام^(١)

قد خوّلك الله ما يفوت ذرع همتك، وأناك ما يتجاوز اشتطاطك، ففي
حكمك من المال والثروة والرئاسة والعلم والقوة والمكانة هل كله تفضل
في الأول، واختيار في الثاني، وثواب أو عقاب في الثالث، ولقد شددت
ونشرت في تعرّف أخبارك، واستعنت كلّ عين وأذن في معرفة ليك
ونهارك، فلم أجده في تفصيل ذلك إلاّ ما يصعب برأسك العار، ويحشد
عليك أسباب الدمار، ويكون عافيتك منه دخول النار، لأنك تظاهر القول
بالوعيد، ثم تركب كلّ كبير من أخذ المال المحرّم، واستباحة الحرّم
المصون، وقتل النفس المؤمنة، ومساهمة الفسقة الفجّرة، وخدمة الظلّمة
الغشّمة وتقديم أهل المجنون والمتّيارة^(٢)، وفي عشر هذا سقوط المرءة،
والانسلاخ من الدّيانة، فيها أيّها المدلّ بالتوحيد والعدل! وهذا كله في
مذهبك أو في مذاهب أسلافك مثل واصل بن عطاء^(٣)، وعمرو بن

(١) البيت للتبّي من فصيدة مطلعها: ملومكما يجعل عن العلام.

(٢) الميّار: الكثير التجوال والطواف الذي يتردّد بلا عمل يخلّي نفسه وهواما.

(٣) أبو حذيفة واصل بن عطاء رأس المعتزلة وأمام المتكلّمين في زمانه ولد سنة ٨٠ هـ في
المديّنة وتوفي سنة ١٨١ هـ (ابن خلّakan ٢/٤١٧٠).

عبد^(١)، وأبي موسى المردار^(٢)، والجعفران^(٣)؟ أما كانوا مع بدعتهم التي شانوا بها وجه الإسلام، وكادوا بها أهله، مجتهدين في غير ما أنت به راضٍ لنفسك ومصرٌ عليها باعتذارك أن الله لا يخادع، ولا منجاة للعبد إلا بالطاعة الحالصة، والتوبية التصوح، هذا إذا كان الإيمان ساكناً صدره، والخوف من الله متربداً في أقطار فكره، واليقين بالمعاد عمود دينه، والعلم بالجزاء راسخاً في قواه، فأما إذا كان عارياً من هذا كله فهو الكافر بعينه الذي سمعت به، وعاقبة الكافرين جهنم يصلونها وبس المصير.

والله ما حركني لبّذ هذا الكلام إليك معتبرة عليك لأنني لم أتجمعك، ولم أطبع في مالك، ولا عرفت وجهي، ولا سمعت باسمي، لكن أبت نفسي أن تقر على الجهل بحالك، وبدخلة^(٤) ما يكون عليه أمثالك فآثرت نصيحتك، فإن النبي ﷺ قال: الدين النصيحة، وما أخواني أن تكون جرأتك على هتك خرمات الدين، ومعارضة الصالحين مع العكوف على الخسران المبين، إنما قويت وثرت لأنك شارد على ربك، كافر من دين نبيك مدع له بمساندك، شاك فيه بفؤادك، متعجب

(١) أبو عثمان عمرو بن عبد من شيخ المعتزلة الأولين توفي ببران قرب مكة سنة ١٤٤هـ زمن المنصور، تاريخ بغداد: ٢ / ١٦٦هـ - ١٨٨هـ.

(٢) أبو موسى عيسى بن صحيح المردار الكوفي من أشياخ المعتزلة وصاحب طريقة المردارية في الاعتزال، كان شديد التطرف والمغالاة في عقيدته.

(٣) الجعفران: جعفر بن مبشر النقفي المتوفى سنة ٥٢٤هـ. وجعفر بن حرب الهمданى المتوفى سنة ٥٢٦هـ، من رؤساء المعتزلة وعلماء الكلام فى بغداد وإلهمما ينسب مذهب الجعفرية فى الاعتزال.

(٤) الدخلة (مثلثة): النبة والمذهب وجميع الأمر والخلد والبطانة.

من له إخلاص، أو له بالدنيونه اختصاص، والويل لك إن كنت بهذا قانعاً من نفسك في الحال الأولى، ثم الويل لك مع الثبور إن كنت جاهلاً بما عليك في الحال الأخرى.

حدثني، أي أمر أنت فيه على رشيد، وأأخذ منه باحتياط، ما أنت عليه من الغلمان المزد الجرد، أم ما أنت مشهور به من الجحانة والسفح؟ ثم تدعى الإطعام للخاص والعام، وقد شاهدنا فوجدنا على يابك قوماً يضربون بالمقارع وجوه الناس، ويحطرون على رؤوسهم العذاب طرداً لهم وإبعاداً.

أفما هذا بأمرك وعيتك وأذنك؟ فلِم تتكلف ما لا تقرّ به، ولم تدعى ما لا تسلم فيه؟ لقد وقفت علينا من استخفافك بالأحرار، ووضعتك من ذوي الأقدار، وكفرك بولت نعمتك، وتعريلك من كل شبهة في أمرك ما لو تنفسنا به بين الناس، أو رسمناه بالقلم في القرطاس، لكان ذاك زائداً على تمدد فرعون، وكفر أبي جهل، وجرأة ديك الجن^(١).

لقد قيست مروّاتك إلى مروّات قوم قرروا بالزندة، فوجدت مروّاتهم فوق دهانتك، ولقد رأينا قوماً لم يتحلوا بالدعوى تحليك استندوا قوتهم في طلب مرضاه مؤملهم ومتجمعي قطرهم، وبلغوا من ذلك المبالغ وأنت مع ع McNك ويسارك لم تسمح من الشاة بظلفها، ثم ملأت الدنيا بالامتنان على الصغير والكبير، كأنك خالق الخلق، وباسط الرزق.

انظر أيها الرجل أي آخر سؤالك، والله إنك شديد الثقة وقد قيل: رب واثق حجل، أيها الرجل:

(١) عبد السلام بن رغبة الشاعر العمسي المشهور، ولد سنة ١٦١ هـ وتوفي سنة ٢٥٣.

ما طار طير فارتفع إلا كما طار وقع

أما تعتبر بما آآل إليه أمر ذي الكفاءتين مع ذلك الثاؤ^(١) والخنزروانة^(٢)،
أما رأيت بعينك في هذه السنين ما يحدوك على الأخذ بالوثيقة لنفسك،
وكتف اليد عن كثير متابوعن^(٣) دينك، وبهشم أنف مرؤتك، ويقطع عرق
أبئتك، وبهيج الألسنة على تبكيرك، وبسيط الأيدي في الدعاء عليك،
ويحشو القلوب تمني زوال دولتك، فاتعظ بقول الشاعر:

يا أيها الباغي على الأحرار ثقة بين مقادرة الأقدار
لا تغترر بمدى تطاول حينه فالظلم يقصر من خطى الأعمار
والعيش نهلة واردة ولربما شئت عليه مدارج الإصدار

وأنختم قولي هذا بما قال بعض السلف لاصحابه. قال: أحذركم الدنيا،
وآخر حكم يوم النداد، يوم لا يعرف لخبير أمد، ولا ينقطع لشر أمد، ولا
يعتصم من الله أحد.

وأرجو أن تسمع ما صدقت القول فيه باتضاح، وتعرف ما تؤديه
بارتياح، والسلام.

٤١. نوادر الصاحب^(٤).

قال: ويقول أيضاً، قال أبو العيناء لحجاج الكاتب: ابنك في أي شيء

(١) الثاؤ: التكبر.

(٢) الخنزروانة: الكبر.

(٣) وثعّ: شرخ.

هو في النحو؟ قال: هو في باب الفاعل والمفعول، قال: هو إذاً في باب والديه! ويقول: قيل لأعرابي: اشتري الأمير سراويل من فنك.

فقال: التقى الثريان^(١) وينشد:

شيخ لنا يُعرف بالخلدي
بريهه في غلظ المردي^(٣)
أدخلتني به وما إلى داره
فناكني والأير من عندي^(٤)

٤٤- عودة إلى مخازن الصاحب^(٥):

قال الخعمي: وهو في هذا كله على نزق شديد، وفهمه عالية، وتفكك قبيح، وسلام منكر، وشمائل منفرة، الويل له هلاً ترك هذه السخافات والحماقات على قومٍ يليق بهم هذا النسط، وأقبل على الدولة فنظم مختلها، وسدَّد التي ليس لها مخصوص؟ يا قوم! أيَّ دين يصح له وقد قتل أَل العميد؟ وأيَّ وفاء يسلم له وقد سُمِّ أولاد ثورته الذي هو ولتي نعمته، وحافظ بهجته، وباسط يده، وبه نال ما نال، وببلغ ما بلغ؟ وأيَّ مروءة تبقى له وهو يمَّ بالقليل إذا أعطى؟ وأيَّ كرم يعتقد فيه وهو يفتر الأمل، ويسحبه على الوعيد؟ حتى إذا انتهى فقراً وضجراً حرمه حرماناً يابساً، ورده رداً مرأً، وأعطيه شيئاً قليلاً وقحاً.

(١) انظر مثاب الوزير لأبي حيان الترجيدي، ص: ١١١.

(٢) جاء في القاموس المحيط: التقى الثريان، شهر العانة ووبر الغرفة.

(٣) المردي: خشبة للدفع في السفينة.

(٤) رواية ياقوت:

أديباً المعروف بالكريدي بولع بالنلمان والمرد

(٥) المصدر السابق.

٢٣. الصاحب وبنو المنجم^(١):

وهل تجد فيمن تقدّم عنده، ونفق عليه غير ابن المنجم^(٢) وهو يبعث بلحيته وهامته، ويُسخر منه، ويُضحك به، ويُعمل له الشعر في النوروز والمهرجان وغيرهما، ويسمعه في نفسه يوم المحفل، ويُطرد على إنشاده ويقول: ما أحسن شعرك، وما أسلس طبعك، ويعطيه على ذاك، ويتقدّم إليه بالقيادة، وبكلّ ما لا يجيئه الدين والمرءة، وكذلك ابن المنجم الآخر أبو محمد جبّس جاهل، صلف، سبيله وحديثه أن يقول: وردت على مولانا الصاحب وأنا كالبدر إذا طلع، فعشقني وعشقت عذاري، وهام بسيبي، ورزقت منه، وخفت على قلبه، وحظيت عنده، وكان يعجبه مني ما لا يجوز التحدّث به، وصدق الختامي في هذا كله.

وكان أبو محمد يقول ما هو أكثر مما قال، وكان مع ذلك في مسک^(٣) كلب، خيمة، ولوّما، وترفّا، وطعماً، رأيته يوماً وقد كتب لإنسان كتاباً بمكتسبة أخذها منه وجعلها في كتبه، وقضى لآخر حاجة بعشر باذنجانات، والباذنجان إذ ذاك بالري مائة بدانق.

(١) انظر المصدر السابق.

(٢) راجع ما ذكره صاحب التهيبة عن بنى المنجم فقد وصفهم بقوله: ... وما منهم إلا أعزّ نجيب، ولهم وراثة قديمة في منادمة السلوك والرؤساء، واحتضان شدید بالصاحب... وهم: هبة الله بن المنجم، وأبو عمسي بن المنجم، وأبو الفتح بن المنجم، وأبو محمد ابن المنجم، للصولي: أخبار الراضي والمتنفي، ٩، ١١٥، ١٣٧.

(٣) المسک: الجلد.

وقال أيضاً الخثعمي: وهل يتقدم عنده إلا هؤلاء الهرج الطغام الذين يجوهون الدنيا، ويدخلون كل مكان ويسيرون فيقولون: فعل مولانا، وكان مولانا، وما رأينا مثل مولانا، وإن رأى مولانا أمكننا من نسخ رسائله، وكثيرون الفاظه، فإذا سمع هذا وأشباهه، ماع وسال، وترجح وذاب، وأعطي عليه وجاد.

٤٢. علم الصاحب كما يروي أبو حيان:

قال أبو حيان: كيف تدعى له التبريز في كل علم، وهو لا يعرف النحو إلا ما جلّ منه، ومن الكلام إلا ما وضع، ثم هو على تصحيف شديد، وتخليط كثير، وفي الأخبار على تمويه لا يخفى على ممثّل، وقد أفسد رسائله بطريقة المتكلمين، وأنسد طريقة المتكلمين بطريقة الكتاب، وكذلك النحو واللغة والحديث.

وهذا وصف ظاهر لا يدفعه إلا مكابر. وصدق هذا الشيخ، فإني رأيت ابن ثابت البغدادي المحدث^(١)، وقد سأله عشية يوم عن قول النبي ﷺ: «قَوْمًا صَفَوْفَكُمْ فَرَاصُوا أَلَا يَتَخَلَّلُكُمُ الشَّيَاطِينُ كَأَنَّهَا بَنَاتُ الْحَذْفِ»، ما الحذف^(٢) فلم يجهه، وقال: سأقول لك، وأخذ في الحديث آخر. قال الخثعمي: وهو مع هذا كله يكذب صراحة في كل شيء، يقول: كان عندنا معلم وسئل عن يوسف أذكر هو أم أنت؟ فقال: يوسف يذكر

(١) أحمد بن ثابت بن بقة من أهل واسط نزل بغداد وحدث بها، سمعت منه أحاديث سنة ٤٣٥ـ٤٥٨هـ تاریخ بغداد ٤٥٨/٤.

(٢) الحذف: ورق الزرع.

ويؤنث، ألا ترى إلى قول الله عز وجل: «يُوسف أعرض عن هذا واستغفرى لذنبك»^(١) وقد اجتمعت له العلامتان. وكان هذا ينسبة إلى إنسان معروف بالأدب، ولكنه كان يُحْمِّق ابن عباد وبيت مخازبه، وكان هذا يضع عليه نوادر باردة.

٢٥ـ ادعاءات الصاحب:

قال أبو حيان: ويقول: دخلت بغداد فلقيت أبا سعيد السيرافي^(٢) وعلى بن عيسى^(٣)، والمراغي^(٤)، وناظرت المراغي في عسى ولعله وكاد وغير ذلك فأبَرَزَ ذَلِكَ وذَكَرَهُ وأشَيرَ إِلَيْهِ بِالْأَصَابِعِ، وفَسَعَ لِي فِي الْمَجَامِعِ، وَكَذَلِكَ نَاظَرَتْ فَلَانَا وَفَلَانَا وَأَنْدَثَتْهُمْ أَكْثَرَ مَا اسْتَنْدَتْ مِنْهُمْ.

وسألت أنا أبا سعيد عن هذا فقال: سبحان الله! وسكت استعظاماً لهذا الحديث ونفيأ له وهو كما أومأ إليه.

٢٦ـ الصاحب والمعروض:

وقلت للمراغي «أبو حيان»: أكان لهذا الحديث أصل؟ فقال: لا والله.

(١) سورة يوسف..

(٢) الحسن بن عبد الله بن العزبان أبو سعيد السيرافي النحوي تولى القضاء في بغداد وتوفي فيها سنة ٥٣٦هـ [الفهرست ٩٣، ابن خلkan ٤٣٠].

(٣) أبو الحسن علي بن عيسى بن علي بن عبد الله الرمانى البغدادى، من كبار النحاة فى زمانه، ولد فى بغداد سنة ٢٩٦هـ، وتوفي فيها سنة ٣٨٤هـ [طبقات النحوين للزبيدي: ٤٦٣].

(٤) أبو عبد الله المقلسي المراغي، التمهيد ٤١٥/٣، الإمتاع ١٢٩/١.

وقال الخثعمي: وهل يدلّ ولو عه بالعروض إلا على سوء الطبيع، وقلة الثاني، وكان أخذها عن البدبهي، وإنما ردّ شعر البدبهي أيضاً لمثل هذا، وبلغ من جنونه عليها، أعني العروض، أنه كان يلقنها على كل لسان ويطلب بها كل شاعر وكاتب حتى أخذ في هذه الأيام يلقن غلاماً تركياً، وأخر قوهياً^(١)، وأخر زنجياً، وكان يظهر بهذا وما أشبهه الحذق والبراعة والتخيّب.

٢٧- الصاحب والنحو:

ثم ينظر في كتاب «الفصيحة»^(٢) و«مختصر الجزمي»^(٣) ويقول: ما رأيت كاتباً يخطيء إلا من هذا، ولا يلحظ إلا من هذا، وهذا حفظك الله منه مغالطة. إن الكاتب قد يخطئ من غيرهما أيضاً وهو ذاك المخطيء المحرّف إذا وزنت كلامه بالقسطسas واعتبرته بالقياس على ما أوضحته العلماء والنحويون.

قال: ومن أراد ذلك بىّن له، فليس الباب دونه مغلقاً، ولا الطريق إليه متعرضاً.

(١) تومي: نسبة إلى قوهستان وهي كورة بين نيسابور وهراء قصبتها قابن، وهي أيضاً بلد بكريمان قرب جيروفت.

(٢) «الفصيحة» تأليف أحمد بن زيد بن سيار المعروف بشعلب، إمام الكوفيين بالنحو ٢٠٠ هـ ٢٩١.

(٣) الجرمي: أبو عمر صالح بن إسحاق البجلي الجرمي، فقيه نحوى تلمذ على الأخفش. كان يقول: عن نفسه: أنا مذ ثلاتون أقضى الناس في الفقه من كتاب مسيوبه، توفي سنة ٢٢٥ هـ. طبقات النحوين للزبيدي ٧٦. ٧٧.

٢٨- سخف الصاحب:

ثم قال الخثعمي^(١): وهل مداره إلا على السخف، والججه، والسكابرة، والبئت، يقول فيمن هو أكتب، وأعف وأسرى: بمحر أبي نصر بن كوشاذ^(٢) أوسع من مصر وبغداد قلت له:

هل لك في فَيْشَةٍ^(٣) فقال مولاي وأستاذِي ينشد هذا وهو يطأير ويقتل يده ويستيل ويصفق أفهمه مخايل ذوي الأقدار والرئاسة، أم مخايل أصحاب الرعاع والسفلة.

٢٩- الصاحب وأهل القصص والحديث:

قال أبو حيان: وهل شاع القول بتكافؤ الأدلة في هذه الناحية إلا به، وكثير المراء الجدل والشك إلا في أيامه، لأنه من أهل القصص من القصص والذكر والزجر والمواعظ والرقائق، ومنع من رواية الحديث.

وقال: الحديث حشو وتفسير القرآن ونشر التأويل، وسماع قول الصحابة والتابعين، وما يُقْنَى به من الحلال والحرام، ويتعلق بجلائل

(١) انظر مثالب الورزقان ص ١١٦.

(٢) هو أبو نصر خواشاذ الفارمي من رجال المهد البريسي.

(٣) الفيشه والقهش: رأس الذكر.

الأحكام. وطردهم ونفاهم، منهم: ابن فارس^(١)، والروياني^(٢)، وابن باهويه^(٣)، وابن العطار وابن شاذان^(٤)، والبلخي وفلان وفلان، وأجلس النجاشي ليجتمع الدليل بالزريدية، وزعم بريء لفسقه وفجوره وتهتكه وظلمه وغضبه ونهبه، وقتله النفس المحترمة، وأخذه الأموال المحظورة.

وقال الخثمي^(٥): زعم أنه إنما منع المذكورين والقصاص فلا ينشو الحشو والتشبّه، ولئلا يقيسوا عليه الصغير والكبير، فهلاً منع من الكلام والجدل للا ينشو الإلحاد ولا يكثر الشبه.

ثم يجلس لأصحاب الحديث، وبروي، ويفسد، ويكتذب، ويختلق الأسناد، ويترك^(٦) المتن، فأي عيب لم يظهر به، ولم يغلب عليه، وأي خزي لم يبيّن ولم يكتسر، وأي فعل سخيف لا فعله. أليس هو سبب كل قبيحة، وفاتح كل باب شر؟ فما هذا القلط^(٧) فيه، وما هذا التعصب له؟ وما هذا اللجاج بسببه؟ أين العدل الذي يُدلّ به في مذهبه أن يجور

(١) أبو الحسين أحمد بن فارس من أئمة اللغة والأدب صاحب المجمل والصافي في علم اللغة، ولد سنة ٥٣٢٩ وتوفي بالري سنة ٥٣٩٥.

(٢) نسبة إلى ربي فربة بغداد.

(٣) محمد بن علي بن الحسين بن موسى بن باهويه الفقي أكابر علماء الشيعة في القرن الرابع، له مصنفات كثيرة توفي في الري سنة ٥٣٨١.

(٤) ورد ذكره في الإساتيع، ١٢٩/١، ١٣٤.

(٥) اسمه محمد بن عبد الله أو عبد الله بن محمد، له من الكتب: الشعر والشعراء، والفهرست، ٤١٥٩.

(٦) يترك: أي قطع.

(٧) الملط: الذكر بالسوء.

ويغصب ويقتل؟ أم من التدين بالتوحيد أن يركب الفواحش، ويتأتي القاذورات، ويخلو بالأئم^(١) والسوءات، ويتنسم الكبائر المبierات، ثم يبني داراً ليس فيها دار التربة استهزاء وسخرية وشخنة عين؟ أم من المعروف أن يتعاطى كل منكر قولهً وفعلاً؟ إني لأظن أن من ينصر هذا الرجل لأعمى أصم قد أسلمه الله من يده، وألجه إلى الشيطان قرينه، أم من العقل والمرءة والكرم والفتورة أن يقول: أين مائدةنا من مائدة مطرف . يعني أنها نصر مطرف بن أحمد وزير مرداويع الجيلي، وكان أكرم الناس . ومن مائدة المهليبي، ومن مائدة ابن العميد . وأين طعامنا من طعامه، وأين إطعامنا من إطعامه.

٣٠- ابن العميد وابنه في نظر الصاحب^(٤):

وكان أبو الفضل سيداً، ولكن لم يشق غبارنا، ولا أدرك سرارنا^(٣) ولا مسع عذارنا، ولا عرف غرارنا، لا في علم الدين، ولا فيما يرجع إلى منافع المسلمين، فاما ابنته فقد عرفتم قدره في هذا، وفي غيره، طباش فلاش^(٤) ليس عنده إلا قاش وقماش مثل ابن عياش، والهروي والحواش. يا قوم هذا كلام من له عقل ورجوع إلى رزانة؟.

(١) الأئم: جمع آئية وهو العيب.

(٢) انظر مطالب الوندرين ص ١١٨

(٣) السرار: محض النسب وأفضله، وسراة الشيء: أطييه وخالصه.

(٤) الفلاش والأكلش: المحتال.

٣١- تفاصير الصاحب:

ثم يقول في مجلسه: أنا الذي عدّ^(١)، لمن حساني، والجراف لمن عصاني، والمحججاف لمن عناني أو حرّك عناني، أَخْمَصْتُ^(٢) فوق هامة الدهر، أَهْنَ أَهْنَ الزَّيَّاتِ مَنَا^(٣). أَهْنَ أَهْنَ خَاقَانَ^(٤) مِنْ غَلَامَنَا، يَعْنِي أَهْنَ الْعَبَّاسِ الْضَّبْيَّ، وَمِنْ عَلَيَّ بْنَ عَيسَى الْحَشْوَى؟ وَمِنْ أَهْنَ الْفَرَّاتِ^(٥) الْأَرْعَنْ؟ وَمِنْ أَهْنَ مَقْلَةِ الْخَطَاطِ؟ وَمِنْ الْحَسَنِ بْنِ وَهْبٍ^(٦) الْمُضْرَبَاتِ؟ هَلْ كَانُوا إِلَّا دُونَنَا إِذَا ذَكَرْتَ سِيَادَتَنَا، وَشَوَّهَدَتْ سِعَادَتَنَا؟ وَلَدُثُّ وَالشَّعْرِيُّ فِي طَالِعِي، وَلَوْلَا رِبِيعَةُ الْأَدْرِكَتِ النَّبِيَّةِ، وَقَدْ أَدْرَكَتِ النَّبِيَّةَ إِذَا قَمَتْ بِالْذَّبْعِ عَنْهَا، وَالنَّصْرَةِ لَهَا، فَمَنْ ذَا يَحْارِبُنَا، وَيُمَارِبُنَا، وَيُهَادِيْنَا، وَيُهَادِيْنَا، وَيُضَارِبُنَا، وَيُسَارِبُنَا، وَيُشَارِبُنَا؟ وَكَادَ الْخَثْعَبِيُّ لَا يَقْطَعُ هَذَا الْمَجْلِسَ لِطُولِ مَا مَرَّ فِيهِ، وَشَدَّةِ مَا أَهْمَهَ مِنْهُ، فَهَذَا كَمَا تَرَى.

٣٢- المسيحي والصاحب:

وقلت للمسيني يوماً «أبو حيان» لم انقلعت عن هذا الرجل وقد كان

(١) الدفاع: الدفاع السُّمِّ القاتل

(٢) أَخْمَصْتُ القدم: ما لا يصعب الأرض من باطنها، وربما يراد به القدم كلها.

(٣) محمد بن عبد الملك المعروف بأهْنَ الزَّيَّاتِ الوزير الأديب المنشئ
١٧٢٩ - ١٧٢٥هـ.

(٤) الفتح بن خاقان بن أحمد بن غرطوش أديب وشاعر وزیر للمترکل وقتل معه سنة ٢٤٧هـ.

(٥) أبو الفتح الفضل بن جعفر بن محمد بن الفرات وزير المقتدر بالله العباسى توفى بالرمليه
٢٣٢٧هـ.

(٦) الحسن بن وهب بن سعيد بن عمرو بن حصين، كاتب وشاعر، كان معاصرًا لأبي تمام
والبحري توفى سنة ٢٥٠هـ.

محسناً إليك، مقدماً لك، معجباً بك؟ فقال: الصبر على الواقعه مفتر،
ومكافذه النفس وخداع العقل من الكلف الشاقة والأمور الصعبه، ولعن الله
الرغيف إذا لم يصب إلا بضعة النفس، وغضاضة القدر، وكذا الروح،
ومفارقة الأدب الحسن، وذئس العرض النقى، وتغزير الدين المعتقد،
وكسب الزور المحظط، وإزالة المروءة المخدومة، وإنى لكما قال الشاعر:
وانى على غنى لصاحب همة لها مذهب بين المجرة والنمر
وإن امرأ ذياء هـ لستمك منها بحبل غرور

٤٣. كلام بدوي^(١):

وسمعته يقول لابن ثابت: جعلك الله من إذا خرى شطر، وإذا بال
قطر، وإذا فسا غير، وإذا ضرط كثير، وإذا عقق^(٢) غيرا.
وهذا سخف لا يليق بأصحاب الفرضة، والذين مشوا بالمرارة،
واختلقو إلى الخندق ودار بهنوكه والرهد والخلد^(٣).

٤٤. التقبع عند الصاحب:

وسمعته يقول^(٤): أنشدني صقلاب^(٥) وابن باب، وقرأت على ابن
البواـب، وسمعت من أبي الحباب، ورويت لأبي المرتـاب الدـباب كل

(١) انظر مطالب الوزيرين ص ١٢٠-١٢١.

(٢) عقق من العقق: وهو ما يتفل إليه الطعام بعد المعدة..

(٣) أسماء أمكنة للفساد والدعارة فيما يدو.

(٤) انظر المصدر السابق.

(٥) ذكره الجاحظ في البيان ونسب إليه البيت الآتي في المعلمـين:
وكيف برجـي الرأـي والـعقل عندـ من بـروح علىـ أثـنى وـبغـدر علىـ طـفل

شيء عجائب، ولقد تحير المهلبي مني، وعرف معز الدولة فضلي وأدبى، وأكبر قدرى، وبلغ الحد الأقصى في أمري.

٣٥- إنكار الجبر^(١):

وأنشدني أبو دلف الخزرجي عندما رأى من كلفه بالمذهب وإفراطه في التعصب^(٢):

سَبَّانْ عَبَادَ بْنَ عَبَا
ثُنَكِرَ الْجَبَرَ وَقَدْ أَخْ
سَبَّانْ عَبَادَ بْنَ عَبَا
رَجَحَتْ فِي الْعَالَمِ كُرْمَا

٣٦- الصاحب وبنو ثوابة^(٤):

وكان إذا نشط واهتز لا يسمع منه إلا حديث عبادة وجحشوبه وأمثال
هؤلاء، وكان يضع علىبني ثوابة كل حكاية غثة فاحشة.

٣٧- كلام المجانين^(٥):

فأما الذي يدل على كلام المثيرسين^(٦) والمجانين، ومن قد شبه

(١) انظر المصدر السابق.

(٢) سب البهتان في ياقوت، وكذلك في البييمة إلى الإسلامي في هجاء الصاحب، ورواية
البيت الثاني في ياقوت:

ت إلَى دَنِيَاكَ كَرْمَا
ثُنَكِرَ الْجَبَرَ وَأَخْرَجَ

(٣) وجراه بجره وجراً: أسمه ما يكره.

(٤) مثال الوزيرين ص : ١٢٢

(٥) مثال الوزيرين ص : ١٢٢ - ١٢٣

(٦) البرسام : التهاب الحجاب الذي بين الكبد والقلب والمبرسم من أصيب بالبرسام.

بالصرع والمالبخوليا^(١) فما سمعته يقول لشيخ خراساني قد دعا به وأكرمه ونور له وكلمه، فسمعته يقول: ما يجب أن يكون لا يقتضي، وما يكون فيه لا يجب أن يكون، وقد يجب أن يكون ما يكون، ويكون ما يجب أن لا يكون، وإنما لا يجب أن يكون، فيكون ما يجب لا يكون، لأن ما يجب أن يكون ليس في وزن ما يكون، والكون والوجوب لا يتلازمان، هل يجتمعان ثم يفترقان، والاجتماع والافتراق عليهما جاريان، فلهذا نُرى الواجب كائناً، والكائن واجباً، وما أكثَرَ من يظن أن الكون متضمن الوجوب، والوجوب متضمن الكون، وتحصيل الفصل بينهما بالنظر من سحر العقل، وهذا فَنٌ لم أجد فيه لمشابختنا شوطاً محموداً، ولعلي أملأ فيه كلاماً بسيطاً بجميع ما يكون شرعاً له إن شاء الله.

٣٨ - الابتلاء بالصاحب:^(٢)

فلما خرجنا قلت للخراساني وقد أخذنا في المؤانسة، وتجاذبنا أطراف الحديث كما قال الشاعر:

أخذنا بأطراف الأحاديث بيننا وسالت بأعنق المطئي الأباطئ^(٣)
كيف سمعت الليلة ذلك الكلام في الكون والإيجاب؟ فقال: يا
خيتي! إما أن يكون هذا الرجل مرجوماً في أيديكم، أو تكونوا مرجومين

(١) السوداء Melancolie.

(٢) المصدر السابق.

(٣) لعل المقصود هنا حرارة القهظ أو غيره.

في يده، أما في بلدكم مارستان! أما للسلطان شفقة على هذا الانسان، أما له من يأخذ بيده وينصح له في نفسه، ويكسح هذا الخرف من عقله، إنا لله وإنا إليه راجعون.

٣٩ - فلسفة الحق: ^(١)

وقال يوماً آخر لابن القطان أبي الحسن الفقيه المتكلم: أيها الشيخ أنت على الحق قال: نعم. قال: والله الحق. قال: نعم. قال: فأنت على الله. فقال الفصار: الحمد لله على سرعة هذا الانقطاع، وسطوع هذا البرهان، ولزوم هذا الحكم. فلما خرج قلنا له: هلاً فصلت أيها الشيخ وقد عرض بك، وتضاحك عند الإشارة إليك؟ فقال: وما مناقلتني رجلاً لو كان في المارستان مغلولاً لكتن لا آمن جنابته إذا كلنته، فكيف وهو مطلق مطاع؟ ونعود بالله من مجنون قادر مطاع، كما نعود به من عاقل ضعيف مغصي.

ثم قال: وهذا الكلام من صاحبه سوء أدب، وضعف عقل، وخسارة نفس، واجتلاف مفت، وقلة دين، إن الحق، والحق اسمان يقعن بالاشراك في اللفظ على معنين مختلفين وأنا على الحق، ولكن على الحق الذي ضنه الباطل، ولست على الحق الذي لا ضد له، والحق يطلق على الله، ويراد به أنه متحقق، والحق يطلق على ما عذاء، ويراد به أنه متحقق، والله الحق المحق المتحقق، وماجاوره فهو الحق المحق المتحقق، وإذا قيل

(١) مثالب الوزيرين ص : ١٢٤ .

في وجه آخر: الله محقق فالمراد به غير هذا، لأنه يُراد به أنه ثابت موجود، ومعتقد مشهود له بالوحدة والقدرة، والحكمة والمشيئة.

٤٠ - انقطاع الصاحب:

قال أبو حيان في مثالب الورزيرين، وحدثنا ابن عباد يوماً قال: ما قطعني إلا شاب وزرَ علينا أصبهان من بغداد يقصدني فأذنت له، وكان عليه ثرفة، وفي رجله نعل طاق، فنظرت إلى حاجبي، فقال له وهو يصعد إلي: اخلع نعلك، قال: ولِمَ؟ ولعلي أحتاج إليها بعد ساعة، فغلبني الضحك وقتلت: أترأه يريد أن يصفعني بها؟

٤١ - حقد أبي حيان على الصاحب:

لقد فرقنا فيما سبق ووجدنا فيه مدى حقد التوحيدى على الصاحب، ولقد نعت الصاحب أبو حيان التوحيدى بنعوت كثيرة تدل على مبلغ حقده على الصاحب، وعوامل هذا الحقد كثيرة سنعرض لها، وقد حاول فيها أن ينال من عظمة الصاحب، فقال فيه كلاماً كثيراً كما بينا لم يقله واحد غيره من الذين عرفوا الصاحب واتصلوا به وعاشروه، وكان ما قال عن الصاحب في كتابه «الامتناع والمؤانسة»: أنه «لا يرجع إلى الرقة والرأفة والرحمة، والناس كلهم محجمون عنه، لجرأته وسلطته، واقتداره وبسطته، شديد العقاب، طفيف الشواب، طويل العتاب، بذيء اللسان، يعطي كثيراً قليلاً» — أعني يعطي الكثير القليل، مغلوب بحرارة الرأس، سريع الغضب، بعيد الفيضة^(١)، قريب الطيرة،

(١) أي بعيد الرجوع إلى الرضا.

حسود حقد حديد، وحسنه وقف على أهل الفضل، وحقده سار إلى أهل الكفاية، أهل الكتاب والمتصرفون فيخالفون سطوه، وأما المنتجعون فيخالفون جفوته. وقد قتل خلقاً، وأهلك ناساً، ونفي أمة، نخوة وتعنتاً ونجراً وزهواً.

وهذا كلام حاقد حاسد جرد فيه أبو حيان الصاحب من كل فضيلة، وانتزع منه كل مكرمة. ولو كان الصاحب فيه ما قال أبو حيان أو بعض ما قال أبو حيان، لكان جديراً أن تسوّد صفحة تاريخه، وأن يذكره المؤرخون بالغضب واللعنة إلى أبد الآبدين، وأن يتتجاهله الناس لحسده وحقده وسطوه التي يؤثر بها ذوي الكفاية، وبخصوصها أهل الفضل، ولما كان له أتباع وكتاب وعمال، ولفسدت الأرض، وانحفل صفو الحياة كيف وقد ذكره الثقات الذين يعتمد بأخبارهم، ويؤخذ بأقوالهم شاهدين له بالفضل يستنقذ الناس إلى بابه، ويرجون المقام في رحابه التي لم تضيق يوماً بأهل الفضل والكفاية.

كيف نصدق أنها حيان الحاقد الحاسد الكاذب فيما أكدته الأمانة العارفون الذين يقولون إن الصاحب «قد احتفل به من نجوم الأرض، وأفراد العصر، وأبناء الفضل، وفرسان الشعر من برببي عددهم على شعراء الرشيد، ولا يقتصرن عليهم في الأخذ برقب القوافي، وملك رق المعاني».. ويقولون «هو صدر المشرق، وتاريخ المجد، وغرة الزمان، وينبع العدل والاحسان.. ولو لا ما قامت للفضل في دهرنا سوق.. الخ»^(١).

(١) بيضة الدهر ١٨٨/٣.

لقد صور أبو حيان الصاحب فيما صور جباراً عنيداً، هل وحشاً ضاراً، ولو صدقناه في هذه الصورة فكيف نتفق بين هذه الصورة والصورة الأخرى التي رسمها للصاحب بعدها مباشرة في قوله «وهو مع هذا يخدعه الصبي، وبخلبه الغبي»، لأن المدخل عليه واسع، والمأوى إليه سهل، وذلك بأن يقال: «مولانا يتقدم بأن أغار شيئاً من كلامه، ورسائل منشورة ومنظومة، فما جبت الأرض إليه من فرغاته إلى غانة ومصر وتغليس إلا لاستفید كلامه وأ Finch به وأنعلم البلاغة منه، لكانها رسائل مولانا قرآن، وفقره فيها آيات فرقان، واحتجاجه من ابتدائهما إلى انتهاءها برهان فوق برهان، فسبحان مع جمع العالم في واحد، وأبرز جميع قدرته في شخص».. فيلين عند ذلك ويدوب، ويلهم عن كل مهم له، وينسى كل فريضة عليه، ويتقدم إلى الخازن بأن يخرج إليه رسائله مع الورق والورق^(١)، ويسهل له الإذن عليه والوصول إليه، والتمكن من مجلسه^(٢).

فتحن في الصورة الأولى أمام صاحب بطل وجيروت وقصوة وصرامة مباعدة منقرة، وفي الصورة الأخرى أمام طفل وديع، أو أمام رجل ساذج يخدعه الصبيان، ويغزو الأغبياء بمسح القول بكلمات ثناء مفتولة، يصلون بها إلى ما يشهون، من الأموال والأرزاق، والرضا والتغريب.

فكيف يمكن التوفيق بين الصورتين المتناقضتين اللتين رسمهما أبو حيان بخياله السقيم، وأوحى بهما قلبه المريض؟

(١) يريد بأحد الورقين الدراما المضروبة وهو يفتح الواو وكسر الراء.

(٢) الامتناع والمؤانسة ٥٦/١.

لقد اضطرنا أبو حيان بأكاذيبه وتلفيقاته أن نخصه في هذا البحث ببيان، يعرف به القارئ حقيقته والعوامل التي كانت تبعه على ما افتراء في حق الصاحب، وذلك كما ذكرنا من قبل.

ولقد كان الصاحب . على خلاف ما ذكر أبو حيان . إنسانا دمت الخلق، رقيق القلب، لا يستحل قتل النفس التي حرّم الله إلا بالحق، ولا يستحل العقوبة بقطع الأرزاق قائلًا «إنها نذالة» وتجاوز الرفق والرحمة التي تذكرت من قلبه الناس إلى الحيوان، فلا يستتبع تعذيبه والتمثيل به.

٤٢ - رحمة الصاحب:

وقد نقل باقوت ما يؤكد الرحمة التي طبع عليها قلب الصاحب في قوله: وما وجدت في بعض الكتب من مكارم الأخلاق للصاحب: أن الصاحب استدعي يوماً شرابةً من شراب السكر، فجيء به قدح منه، فلما أراد شربه قال له بعض خواصه: «لا تشربه فإنه مسموم» فقال له: «وما الشاهد على صحة ذلك؟» قال: «هأن تجربه على من أعطاكه»! قال: «لا أستجير بذلك ولا أستحله». قال: «فجربه على دجاجة»! قال الصاحب «إن التمثيل بالحيوان لا يجوز».

ثم أمر الصاحب بحسب ما في القدر، وقال للغلام انصرف عنى، ولا تدخل داري بعدها. وأقر رزقه عليه، وقال: «لاندفع اليقين بالشك، والعقوبة بقطع الرزق نذالة»^(١)!

(١) معجم الأدباء ١٨٥/٦.

ودخل على الصاحب رجل لا يعرفه، فقال له الصاحب: أبو من؟
فأنشد الرجل:

وتنفق الأسماء في اللفظ والكتى كثيراً ولكن لا تلaci الخلاائق
فابتسم الصاحب، وقال له: اجلس يا أبي القاسم! فقد فطن إلى كنيته
من بيته، وكان الصاحب يقول لجلسائه إذا أراد أن يسألهم ويؤنسهم:
نحو بانهار سلطان، وبالليل إخوان^(١)!

ومن أخباره أنه مرض مرة بالإسهال، فكان كلما قام عن المعلقة وضع
عندها عشرة دنانير لولا يتبرم به الفراشون، فكانوا يتمون لو طالت عنته.
ولما عوفى أباح للفقراء نهب داره، وكان فيها ما يساوي نحواً من خمسين
الف دينار من الذهب^(٢).

فأية رقة وراء هذه الرقة في معاملة الناس، والرفق بهم، والتلطف معهم؟!

ثم أقرأ قول أبي حيان الذي يبرز الصاحب فيه رجلاً مغوراً معجباً
بنفسه مستبداً برأيه، وأعجب بهذه الصورة البيانية الرائعة التي رسمتها
ريشة أبي حيان بأسلوبه التهكمي اللاذع في قوله: «والذي غلطه في نفسه
وحمله على الاستجابة بفضله، والاستبداد برأيه، أنه لم يجهه فقط بتخطشه،
ولا قوبيل بتسوئه، ولا قيل له أخطاء أو قصرت أو لحت أو أخللت، لأنه
نشأ على أن يقال: أصحاب سيدنا، وصدق مولانا، ولله دره، ولله بلازه، ما
رأينا مثله، ولا سمعنا من يقاربه، من ابن عبد كان مضافاً إليه؟ ومن ابن

(١) بنية الدر ١٩٦/٣.

(٢) البداية والنهاية لابن كثير ٣١٥/١١.

ثوابه مقيساً عليه؟ ومن ابراهيم بن العباس الصولي إذا جمع بينهما؟ من صریح الغواني؟ من أشجع السلمي إذا سلك طريقهما ومتى برشائهما وقدح بزندهما؟ قد استدرك مولانا على الخليل في العروض، وعلى أبي عمر وبن العلاء في اللغة وعن أبي يوسف في القضاة، وعلى الاسکافي في الموازن، وعلى ابن نوبخت في الآراء والديانات، وعلى ابن مجاهد في القراءات، وعلى ابن جرير في التفسير، وعلى أرسسطوطاليس في المنطق، وعلى الكندي في الجزء^(١)، وعلى ابن سيرين في العبارة، وعلى أبي العیناء في البديهة، وعلى ابن أبي خالد في الخص وعلى الجاحظ في الحيوان، وعلى سهل بن هارون في الفقر، وعلى يوحنا في الطب، وعلى ابن ربن^(٢) في الفردوس، وعلى عيسى بن دأب في الرواية، وعلى الواقدي في الحفظ، وعلى النجار في البدل^(٣)، وعلى ابن ثوابه في التفقه، وعلى الترمي السقطي في الخطرات والواسوس، وعلى مزيد^(٤) في التوادر، وعلى أبي الحسن العروضي في استخراج المعنى، وعلىبني برمل في الجود، وعلى ذي الرياستين في التدبیر، وعلى سطیح في الكهانة، وعلى ابن الحبیا خالد بن سنان العبّسي في دعواه^(٥)، وهو والله أولى بقول ابي شریع اوس بن حجر التمیمی في فضالة بن كلدة:

(١) بزيد الجزء الذي لا ينجزأ، وهو ما يسمى بالجهر الفرد.

(٢) هو على بن ربن كان طبیباً مشهوراً، ألف كتاباً اسمه «فردوس الحكم».

(٣) البدل اسماً كتاب في علم الكلام لأبي عبد الله الحسين بن محمد النجار.

(٤) هو أبو اسحاق مزيد المدنی، أشهر بنادره المضحكة وبسرعة حاضره ولطف ملحمه.

(٥) خالد بن سنان زعموا أنه كان نبیاً في زمن الفتنة بين عیسی و محمد عليهما السلام، وكان

بأرض عیسی، وأصحاب هذه الأسماء التي ذكرها أبو حیان، كان كل واحد منهم على

لكل علم، وفن من العلوم والفنون التي أوردتها إلى جانب أسمائهم.

الألمعي الذي يظن بك الغطن كأن قد رأى وقد سمعا

هذا هو الكلام الذي يصل إلى قلب الصاحب، كما تخيله أبو حيان، وهذا الثناء والتفضيل اللذان كان يسمعهما من جلاسه ومخالطيه مما سرّ غرور الصاحب وكبرياته كما زعم أبو حيان، إن الغطن يسبق إلى أن أباً حيان هو الذي كان يحاول أن يخدع الصاحب بأمثال هذا الكلام، لأنه أعرف الناس، وهو أحذقهم في معرفة فحول الفكر والفن والسياسة والعلم!

ثم اقرأ كيف تصور أبو حيان موقع أمثال هذا الثناء من نفس الصاحب، وكيف صوره في قوله: «فترة عند هذا المهر وأشيهه يتلوى ويتسم، ويطير فرحاً ويتقسم ويقول: «ولا كذا»^(١)، ثمرة المسيق لهم وقصرتنا أن نلحقهم، أو نقفوا أثراً لهم، ونشق عبارهم، أو نرد غمارهم»، وهو في كل ذلك يتشاكى وبتحابيل، ويلوبي شدقة، ويبتلع ريقه، ويردة كالآخذ، ويأخذ كالمنتزع، ويغضب في عرض الرضا، ويرضى في ل يوم الغضب، وينهالك وينحالك، ويتقابل ويتقابل، ويعاكبي المؤمسات، ويخرج في أصحاب السماجات. ومع هذا كله يظن أن هذا خاف على نقاد الأخلاق، وجهابذة الأحوال، الذين فرغهم الله لتبني الأمور، واستخراج ما في الصدور، واعتبار الأسباب، وذلك أنه ليس بجيد العقل، ولا خالص الحمق.

قال: وقد أفسده أيضاً ثقة صاحبه^(٢) به وتعريله عليه، وقلة سماعه من

(١) ومكنا الكلمة ظاهرها الرغبة في الاقتصاد من المدح، وباطنها كما يروي أبو حيان العث على الأكارن.

(٢) يريد بصاحب الملك الذي استوزره، وهو مؤيد الدولة أو فخر الدولة أخرى، فكلامها استورره.

الناصح فيه، فمذر بازدهاء المال والعلم والأقدار والأمر والكفاية وطاعة الرجل وتصديق الجلساء والعادة الغالبة، وهو في الأصل مجدود^(١) لا جرم، ليس يقله مكان دلاًّا وشرفاً، عجبًا وتبهاً وصلفاً، واندراً^(٢) على الناس، وازدراه للصغرى والكبار، وجبهما^(٣) للصادر والوارد، وفي الجملة آفاته كبيرة، وذنوبه جمة.

وسئل أبو حيان: وكيف يتم له ما هو فيه مع هذه الصفات التي تذكرها؟ فقال: والله لو أن عجوزاً بلهاء، أو أمة ورهاه^(٤) أقيمت مقامه، ل كانت الأمور على هذا السياق! فقيل له: وكيف ذاك؟ فقال: قد أمن أن يقال له: لم فعلت؟ ولم لم تفعل؟ وهذا باب لا يتفق لأحد من خدم الملوك إلا بجد سعيد^(٥).. ألسنت تجد في هذا حدثاً لذهباً للسرور، وتتألifaً طريفاً للمتعة، أمنع به أبو حيان جليسه الوزير، وشفى به ما في نفسه وما في نفس وزيره، ولكن على حساب الصاحب، وعلى حساب النيل من عرضه ومرؤته، هل على حساب أعراض الناس ومرؤاتهم؟

٤٣ - بدريته وحضور جوابه

وعرف عن الصاحب أنه سريع النكتة. حاضر الجواب كثير الفكاهة والدعابة وكان ذلك أثراً لثقافته الواسعة وعلمه المتبحر وتجاربه الكثيرة

(١) المجدود: المحظوظ.

(٢) الاندرا: الاندفاع والتهجم.

(٣) أي جيئهم عند ملاقاتهم بما يكرهون.

(٤) الورهاه: الحمقاء.

(٥) الامتناع والمؤانسة ٦٩، ٦٠/١.

يُوقَد ذهنه وحضور بديهته. وقد رويت له في هذا السياق طائف ممتعة،
نها عدا ما منذكره في أدبه:

ورد إلى الصاحب رجل من أهل الشام فكان فيما استخبره عنه: رسائل
من تقرأ عندكم؟ فقال رسائل ابن عبد كان^(١). قال: ومن؟ قال: رسائل
لصابي ثم غمزه أحد جلساً ليقول «رسائل الصاحب» ورآه الصاحب
يغمزه، فقال: تغمز حماراً لا يحسن؟

وأطال شاب عنده المكت و لم يقتد بغيره في المقام فقال: للفتي، من
أين؟ فقال: من قم قال الصاحب: فإذاً قم

كان المأموني الأبهري الشاعر قال في شاعر أبهري آخر بهجوه:
كلانا إلى آدم يعتزى وتجمعنا آصرات الرحم^(٢)
ولكن الفضل في أنه يصلو بقرن وأني أجم^(٣)
واتفق أن حضر مجلس الصاحب فقال الخادم: المأموني الأبهري
الشاعر. فقال الصاحب: الأقرن^(٤) أم الأجم؟ فاستحينا وخجلنا

وحدث بديع الزمان الهمذاني قال لما أدخلته والدي إلى الصاحب:
وصلت إلى مجلسه وأصلت الخدمة بتقبيل الأرض. فقال لي الصاحب:
يا بني اقعد كم تجد كأنك هدد.

(١) ابن عبد كان هو محمد بن عبد كان. كان كاتباً للدولة الطولونية، وكان يليها مترسلاً
نصيباً وله ديوان رسائل.

(٢) الآصرة: الصلة والقرابة.

(٣) الأجم: الذي لا قرن له. وفي البيت تعریض ظاهر.

(٤) الأقرن: ذو القرن.

كان قاضي القضاة عبد الجبار بن أحمد الأسدآبادي يكتب في عنوان كتابه إلى الصاحب «داعيه: عبد الجبار بن أحمد» ثم صار يكتب «وليه: عبد الجبار بن أحمد» ثم صار يكتب «عبد الجبار ابن أحمد» فقال الصاحب لنديمه: أظنه يقول أمره إلى أن يكتب «الجبار».

وكما كان الصاحب متفرداً بالقدرة على هذه الدعابات الساخرة والفكاهات النادرة كان يعجبه أن يستمع إلى الظرفة والدعابة والسخرية وإن كانت السخرية من شخصه. وذكر الصاحب أن جماعة أخجلوه بدعاباتهم وحضور جوابهم، قال: منهم أبو الحسن البديهي، فإنه كان في نفر من جلسائي. فقلت له . وقد أكثر من أكل المشمش — لا تأكله فإنه يلطخ المعدة فقال: ما يعجبني من يطب على مائتها! قال: وأخجلني آخر إذ قال لي — وقد خرجت من دار السلطان وأنا ضجر من أمر عرض لي — من أين أقبلت يا مولانا: فقلت: من لعنة الله فقال: رد الله غربتك وأحسن على اساءته الأدب . فاستحسنت مداعبته فقلت: ليتك تحتي فقال مع ثلاثة آخر — يعني في الجنائز — فأخجلني!

وحدث الصاحب يوماً فقال: ما أفظعني^(١) الا شاب ورد علينا أصحابه بغدادي فقصدني فأذنت له وكان عليه مرقة وفي رجله نعل طاق^(٢) فنظرت إلى صاحبي فقال له وهو يقصد إلى: اخلع نعلك فقال: ولم؟ ولعلي أحتاج إليها بعد ساعة، قال الصاحب: فغلبني الضحك وقلت: أتراء يربد أن يصفعني؟.

(١) أفظعني الأمر: اشتدت شناعته وجاورز قدره وأفظعه الامر: وجده فظيعاً.

(٢) نعل طاق: نعل طاق عطف ببعضه على بعض.

ومثل هذه الأحاديث والطرائف لا تصدر عن جبار عنيد ولا عن مستبد طائش وإنما تصدر عن رجل أليف مألف. يحب الناس ويحبه الناس كالصاحب الإنسان الرقيق السمع المهدب الرفيق.

٤٤ - سماحة الصاحب

وسماحة الصاحب أشهر من أن يعرف بها ولقد أصبحت تلك السماحة مضرب الأمثال وحسبنا أن نذكر في هذا المجال قول أبي منصور التمالي في نعنه لمست تحضرني عبارة أرضتها للإفصاح عن علو محله في العلم والأدب وجلالة شأنه في الجود والكرم وتفرده بغايات المحاسن وجمع أثاثات المفاخر.. وهو صدر الشرق وتاريخ المجد وغرة الزمان وينبع العدل والاحسان ومن لا حرج في مدحه بكل ما يدح به مخلوق ولو لاه ما قامت للفضل في دهرنا سوق. وكانت أيامه للعلوية والعلماء والأدباء والشعراء وحضرته محطة رحالهم وسوسم فضلائهم ومسترعى آمالهم وأمواله مصروفة إليهم وصنائعه مقصورة عليهم وهمته في مجد بشيده وإنعام بجده وفاضل بصفاته^(١)

والحقيقة أن هذه السماحة التي زينت مكارم الصاحب وجعلته مثلاً فذّا فيها لم تكن خلقاً مكسوباً. بل كانت طبيعياً فيه وجبلة ورثها عن أبيه اللذين رباه عليها وأخذاه بها وعلماء منذ حداثته أن يكون سمحاً معطاء فقد كان منذ الصغر إذا أراد المضي إلى المجد ليقرأ تعطيه والدته ديناراً في كل يوم ودرهماً وتقول له: تصدق بهذا على أول فقير تلقاه فكان هذا

(١) نتهي الدهر ٢/١٨٨.

دأبه في شبابه إلى أن كبر. وصار يقول للفراش كل ليلة اطرح تحت المطرح ديناراً ودرهماً لفلا نساء فبقي على هذا مدة ثم إن الفراش في ليلة من الليالي نسي أن يطرح له الدرهم والدينار فانبعه وصلى وقلب المطرح ليأخذ الدرهم والدينار ففقدهما فطير من ذلك وظن أنه لقرب أجله فقال للفراشيين: خذوا كل ما هنا من الفراش وأعطوه لأول فقير تلقونه حتى يكون كفارة لتأخير هذا. فلقوا أعمى هاشمياً على بد امرأة فقالوا له: تقبل هذا؟ فقال: ما هو؟ فقالوا مطرح دبياج ومخاد دبياج فأغصي عليه فأعلموا الصاحب بأمره فأحضره ورش عليه ماء فلما أفاق سأله فقال: أسلوا هذه المرأة إن لم تصدقوني فقالوا له: اشرح فقال: أنا رجل شريف لي ابنة من هذه المرأة خطبها رجل فزوجناه ولدي ستان أخذ القدر الذي يفضل عن قوتنا أشتري لها به جهازاً. فلما كان البارحة قالت أمها اشتهرت مطرح دبياج ومخاد دبياج فقلت من أين لي ذلك؟ وجرى بيبي وبينها خصومة إلى أن سألتها أن تأخذ بيدي وتخرجني حتى أمضى على وجهي فلما قال لي هؤلاء هذا الكلام حق لي أن يفضلي على.

قال الصاحب: لا يكون الدبياج إلا مع ما يليق به ثم اشتري له جهازاً
يليق بذلك المطرح، وأحضر زوج الصبية ودفع إليه بضاعة سنية⁽¹⁾

مكذا كان الصاحب في سماحته وهكذا كان عطاوه مع من لا يعرف
من الناس إنه ليعطي للعطاء وبهب للهبة ويجد في الهبة والعطاء متنةً وفألاً
ويجد في المنع طيرة وشوماً ومع ذلك تجد من أعدائه الذين لجوا في

(1) بغية الوعاة ١٩٦٠

خصوصتهم محاولات لتشويه هذا الخلق المطرب غيظاً وحسداً حتى يقول بعضهم: عطاء ابن عباد لا يزيد على مائة درهم وثوب إلى خمسة وعشرين إلى الألف نادر وما يوفى على الألف بدين.

وحيث تدمغهم الحقائق التي لا يستطيعون إنكارها يقولون «بلى قد ثار به ناس من عرض جاهه على السنين ما يزيد قدره على هذا بأضعاف وعدد هؤلاء قليل جداً وذلك باعتذال النفس وهتك الستر^(١).

وهذا كلام مضطرب متناقض نعمل منه الحقيقة السافرة على الرغم من الحسد والعداوة الظاهرة قال الصاحب: حضرت مجلس ابن العميد عشية من عشایا شهر رمضان وقد حضره الفقهاء والمتكلمون للمناظرة وأنا إذ ذاك في ريعان شبابي فلما تقوض المجلس وانصرف القوم وقد حل الإفطار نكرت ذلك فيما بيني وبين نفسي واستقبحت الأمر بتفطير الحاضرين مع وفور رياسته واتساع حاله واعتقدت ألا أفل بما أفل به إذا قمت يوماً مقامه.

فكان الصاحب لا يدخل عليه في شهر رمضان بعد العصر أحد كائناً من كان فلا يخرج من داره إلا بعد الإفطار عنده وكانت داره لا تخلو في ليلة من ليالي شهر رمضان من ألف نفس منفطرة فيها وكانت صلاته وصدقاته وقرباته في هذا الشهر تبلغ مبلغ ما يطلق منها في جميع شهور السنة^(٢) وكان ما يخرج لكافي الكفأة في السنة في وجوه البر والصدقات

(١) سعجم الأدباء ٢٢٧/٦.

(٢) بئمة الدهر ١٩٣/٣.

والسبارات وصلات الاشراف وأهل العلم والغرباء الزوار ومن يجري مجري ذلك مما يتكلفه ويريد به صيت الدنيا وأجر الآخرة يزيد على مائة ألف دينار.

ونقل الشاعري في البيتية ما رواه عنون بن الحسين الهمذاني التميمي في قوله: كنت يوماً في خزانة الخلع للصاحب فرأيت في حسابات كاتها وكان حريقاً مبلغ عيّام الخر التي صارت تلك الشتوة في خلع الخدم والحاشية ثمانمائة وعشرين.

وكان يعجبه الخر ويأمر بالاستكثار منه في داره فنظر أبو القاسم الزعفراني يوماً إلى جميع من فيها من الخدم والحاشية عليهم الخروز الفاخرة الملونة فاعتزل ناحية وأخذ يكتب شيئاً فسأله الصاحب عنه، فقيل إنه في مجلس كذا يكتب فقال على به فاستعمل الزعفراني ريشماً يكمل مكتوبه فأجلمه الصاحب وأمر بأن يؤخذ ما في يده من الدرج فقام الزعفراني إليه وقال: أهد الله الصاحب:

اسمعه من قاله نزد به عجبأً فحسن الورد في أغصانه

قال الصاحب: هات يا أبا القاسم فأنشده أبياتاً منها:

سواك بعد الفتى ما أفتني
وتأنت ابن عباد المرتجى
تعد نوالك نيل المني
وخيبرك من باسط كفه
ومن ثناها قرب الجنى
غمرت الورى بصنوف الندى
فأصفر ما ملکوه الغنى
إلى راحة من نأى أو دنا

كسوت المفيمين والزائرين
وحاشية الدار يمشون في
ولست أذكر لى جارياً على العهد يحسن أن يحسنا

فقال الصاحب: قرأت في أخبار معن بن زائدة أن رجلاً قال له: أحملني
أيها الأمير فأمر له بناقة وترس وبغلة وحمار وجارية ثم قال له: لو كنت
أعلم أن الله تعالى خلق مركوباً غير هذه لحملتك عليه.. وقد أمرنا لك من
الخز بحبة وقبيص ودراعة وسراويل وعمامة ومنديل ومطرف ورداء
وجورب ولو علمت لباساً آخر ينخد من الخز لأعطيتكه ثم أمر بإدخاله
المزانة وحسب تلك الخلع عليه وتسليم ما فضل عن لبسه في الوقت إلى
غلامه^(١).

كهف ينسب رجل مثل هذا إلى الشع والتغافر: أم كهف يحرق كاتب
على التشكيك في سماحته ووفرة عطائه؟ ولقد ذكر هلال بن معن بن
ابراهيم الصابيء. كما سبق. أن الصاحب كان يراعى من بغداد والحرمين
من أهل الشرف وشيخوخ الكتاب والشعراء وأولاد الأدباء والزهاد والفقهاء بما
يحمله إليهم في كل سنة مع الحاج على مقاديرهم ومنازلهم وكان يحمل
إلى أبي إسحاق ابراهيم بن هلال خمسمائة دينار وإلى ألف درهم جبلية
مع جعفر بن شعيب^(٢).

(١) بنيمة الدهر ١٩١/٣.

(٢) معجم الأدباء ٣٠٠/٦.

ومن أخلاق الصاحب البارزة وفضائله المميزة خلق الاعتدال وهو أساس الفضيلة وعنوان الكمال في الإنسان الفاضل.

ويبدو هذا الخلق واضحاً في نواحٍ كثيرة من حياته العامة وحياته الخاصة على السواء كما تبدو في مبدئه وفي عقيدته فقد علمه الحكم وتحمل المسؤولية والترفع عن الخصم والتحلل من قيود العصبية ونبي نفسه وذاته وأجواءه وميوله حتى كان رجل الدولة أو رجل الجميع الذي يحمل قليلاً واسعاً يتسع لأنصاره ولا يضيق عن خصمه يغفر الزلة ويتجاوزها عن الهفوة ويتماسك عند الأحداث التي تنزلزل الرجال.

فلم نقرأ في حياته العامة في السياسة والحكم شيئاً يدل على تهوره أو اندفاعه مع كبير أو صغير ولم نقرأ كذلك شيئاً يدل على تهافته أو ضراعته واستصغار نفسه. وقد رأينا أنه حين أغار مع فخر الدولة على الأهواز ليصل منها إلى الأمل المرتقب في دار السلام دب السعاة بينهما وخوفوا فخر الدولة من أن يكون الصاحب يعمل لنفسه حتى يتصل بحكم بغداد فلما استدعاه فخر الدولة من طريقه إلى بغداد ليرجع إليه وشخص معه إلى الأهواز كما أراد وحارب في الأهواز وانتصر حتى تدخل فخر الدولة وقد أساء إلى جنده حتى اضطربوا عليه ولما أحس الصاحب بتغير فخر الدولة عليه لم يزد عن الامساك والتزام الصمت وكان في استطاعته وقد رأى من مولاه ما رأى أن ينجو بنفسه ذاهباً إلى بغداد. ولكن بعدم وسيلة يتوسل بها إلى الخليفة أو إلى قلب السلطان أو أن يرجع إلى الري مغاضباً ولكنه بقى حيث هو مع مولاه حتى إذا رجع إليه مستشيراً وجد عنده الرأي الذي

يجمع شمل جنده ولو أن فخر الدولة لم يأخذ برأيه ولم يجد بماله. إلا أن رأي الصاحب كان الرأي الصائب وقد عرفت اصواته بعد تشتت جنده وخيبة حملته وتبدد الآمال.

ولعل الاعتدال وضبط النفس كان من أهم ما رفع الصاحب في نفوس أمرائه ودعاهم إلى استيقائه والحرس عليه ولهذا عمر في الوزارة تلك المدة الطويلة التي تزيد على ثمانية عشر عاماً وهي مدة قل أن عمرها وزير في وزارة ولا سيما في ذلك الزمان الثائر المضطرب ولقد تعاقب عليه أميران أحدهما فخر الدولة، الذي لم يحتمل أخويه ولم يحتمله. ثار عليهما وظل مقصياً ثائراً يحارب أخويه عضد الدولة ومؤيد الدولة ويحاربه حتى توقي مؤيد الدولة فاستدعاه الصاحب وسلم إليه السلطان واعتذر الصاحب عن مشاركته في تحمل مسؤولية الحكم، لو لا أن أح عليه قبيل المضي في طريقه محتفظاً بكرامته وترفه.

ويبدو أثر الاعتدال في سياساته في ذلك الرضا الشامل الذي أبدته الرعية طوال مدة وزارته ولم نقرأ في تاريخه شيئاً عن عنف أو عقوبة صارمة أنزلها بأحد مرؤوسيه أو رعاياه جزاء عن مخالفة أو محاولة للخروج. ولقد كان الصاحب يغضب إذا استغضب ولكنه كان سريع الرجوع ومن شأن المتهورين الاندفاع وحدة الانفعال في الرضا وفي السخط على السواء.

أما رحمة الصاحب ورفقه بالناس وتواضعه للعلماء والشعراء والأدباء ونادرته اللطيفة وفكاهته الطريفة فإن كل ذلك لم يكن في حقيقته تصاغراً أو شعوراً بالهوان، بقدر ما كان مظهراً من مظاهر الرغبة في تحطيم الكبراء وكسر حدة المنصب وشهوة السلطان التي يكثر أن تخدع كثيراً

من رجال الحكم والسلطان فلم يستسلم الصاحب لتلك الشهوة التي تشير في نفوس أصحابها الحرص على الاستعلاء حتى يركبوا مركب البطش والاستبداد ومن هنا كان التوسط والاعتدال فكان بين الحكماء مثلاً بعيد المنال وكان في العلماء والأدباء عالماً وأديباً يخلع رداء السلطان الذي تنقبض له النفوس ثم يقول لجلسائه كلمته المذكورة: «نحن بالنهار سلطان وبالليل أخوان» ويقول للقادم عليه إذا كان من أهل العلم: «يا أخي تكلم واستأنس واقتصر وابسط ولا تزع إن سلطان العلم فوق سلطان الولاية فليفرغ روعك ولينعم وقل ما شئت وأبصر ما أردت فلست تجد عندنا إلا الانصاف والاسعاف» ويقول لأبي واقد الكرايسى — وقد حضر مجلسه وهو لا يعرفه . يا أخي ابسط واستأنس وتكلم فلك منا جانب وطيء وشراب مريء».

وذلك إن كان يدل على شيء فإنما يدل على الطبع الأصيل الذي يملك صاحبه زمام نفسه فلا يسرف بها متعالياً ولا ينحط بها متداعياً ولكنها تصرف في كل موقف بما يتعلمه ومع كل انسان بما يناسبه وهذا هو سر احترامه وهو أيضاً سر محبته ولقد مازحه مولاه فخر الدولة ذات مرة بكلمة رأى الصاحب أنها نابية فما كان أسرعه إلى القول: بنا من الجد ما لا تفرغ معه للهزل وغادر مجلسه غاضباً وانكمش عنه حتى استرضاه مقدراً ما ينبغي لمعشه من التوقير والاحترام.

وهنالك مظاهر آخر لتمكن خلق الاعتدال من نفسه وتسليمه على قوله وفعله وعقيدته ومذهبه فقد رأينا أنه كان يرى رأي المعتزلة أصحاب العدل والتوحيد الذين كانوا يقولون بخلق القرآن كما منعرف ذلك عند دراسة

علم الصاحب وكان يناظر لتأييد قوله بما يستطيع من الأدلة والبراهين ولكنه لم يحاول مرة أن يكره أحداً على القول بما يقول ولا أن ينال من مخالفيه مذهبه أو رافضي قوله أو أن يفعل ما فعل خلفاءبني العباس ووزرائهم من أخذ معارضيهم للفكرة نفسها بالعسف والفلتم والاستبداد وتحجيتهم عن وظائفهم إن كانوا من أصحاب المناصب والوظائف والمناصب وكأنهم كافرون بكل القيم منكرون لجميع العقائد من أجل خلاف في الرأي حول بدعة جديدة أو فتنة جديدة مزقت وحدة المسلمين وعدب بسيبها كثير من أنتمهم وعلمائهم وفقهائهم وأفاضلهم.

أما الصاحب — وقد كان يقول بما يقول به خلفاءبني العباس وزرائهم فإنه لم يحاول أن يسلك مسلكهم أو أن يذهب مذهبهم في التعصب لرأيه أو أخذ مخالفيه بمثل تلك القسوة والصرامة بل كان يدللي بحجته ويدع لمخالفيه أن يدلوا بحجتهم ولا يحاول أن يحملهم على اعتناق رأيه أو أن يصيغ لهم سوء بل كان على العكس من ذلك يفتح لهم صدره ويوسع لهم في مجده ويسقط معهم ثاركاً لكل إنسان أن يقول بما يرى وأن يعتقد ما يرضي.

والمعلوم عن الصاحب أنه كان شيعياً إمامياً من الاثني عشرية ولكن يبدو أن الشيعة كانت مذهب الرسمى المعروف وإن كان له شعر كثير يدل على حبه لأهل بيت رسول الله حباً ملوك عليه قلبه وظهر أثر هذا الحب الشديد في كثير من شعره ملتمساً بهم الشفاعة والزلفى إلى الله كقوله مخاطباً آل رسول الله عَلَيْهِ السَّلَامُ:

فما يخاف اللبوث في الخيس^(١)
يُفع لـه الله في الفراديس
كأنها حلة الطواويس
قد نثر الدر في القراطيس
ملك سليمان عرش بلقيس
حتى يزور الامام في طوس

إن ابن عباد استجار بكم
كونوا أباً مادتي وسائله
كم مدحه فيكم بحبرها
ومذهكم يقول قارئها
يملأ رق القربيض قائلها
بلغه الله ما يؤمله

وقوله راجياً بجهنم الخلود في الجنان:

وزين العابدين وباقران
بهم أرجو خلودي في الجنان

نبي والوصي وسيدان
وموسى والرضا والفضلان

وقوله في اثناء بني السيدة فاطمة بنت رسول الله ﷺ:

قد قلت قولًا صادقاً بينا
لكل شيء فاضل جوهر

ولبست النفس به آثمها
وجوهو الناس بنو فاطمة

إلى أمثلة كثيرة من هذا الشعر الذي فاض به بحر الصاحب في حب
رسول الله وأولاده ولا يختلف مسلمان أبداً كان مذهب كل منهما ونحلته
في حب رسول الله وأله والولاء لهم ولغيرهم من ذوي السابقة والجهاد في
سبيل الله من السابقين الأولين الذين رضي الله عنهم ورضوا عنه وجاهدوا
بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله فهذا قدر مشترك بين المسلمين جميعاً
سواء أكانوا من أهل السنة أم كانوا من أهل الشيعة.

(١) الخيس بالكسر موضع الأسد.

ومع هذا الحب والولاء الذي يشارك الصاحب فيه المسلمين جميعاً كان الصاحب معتزلياً وهنالك اختلافات كثيرة بين الشيعة والمعتزلة والأدلة على كونه معتزلياً كثيرة منها تعصبه للجاحظ الذي كان من أئمة المعتزلة كما هو معلوم وقد رد الشريف المرتضى في كتابه «الانصاف» على الصاحب ابن عباد في تعصبه للجاحظ ونسب الشريف الصاحب إلى الاعتزال وقال فخر الدولة للصاحب «بلغني أنك تقول: المذهب الاعتزالي» وعده صاحب كتاب «فوج المهموم» من المعتزلة ويظهر ذلك من رسالته المسماة بالاباهنة فإن ظاهره فيها انكار الصن على أمير المؤمنين مع القول بأفضليته وهذا مذهب جماعة من المعتزلة ويحکى عن الصلاح الصندي أنه قال: ومن المعتزلة الصاحب ابن عباد والزمخشري والفراء النحوي^(١). وقال أبو حيان التوحيدى «والغالب عليه كلام المتكلمين المعتزلة وكتابه مهجنة بطرائفهم ومنظارته مشوبة بعبارة الكتاب^(٢). ما لنا نذهب بعيداً في ثبات اعترافه وهو القائل بما يقول به المعتزلة من الاختيار وإنكار العبر حتى قال فيه الإسلامي الشاعر بهجوره:

بما ابن عباد بن عبا من بن عبد الله مرها
تنكر الجبر وأنخرجت ت من دنياك كرها

وهو القائل بما يقول به المعتزلة من خلق القرآن؟ وهو من المعتزلة الذين يسمون أنفسهم «أصحاب العدل والتوحيد» كما قال هو عن نفسه:

المعدل والتوكيد مذهبى الذى يزهى به الإيمان والإسلام

(١) راجع أعيان الشيعة: ١١٣٦٢ رقم ٣٦٨.

(٢) الامتناع والمؤانسة ١/٥٤.

وولامي لـ محمد ولآله ديني وحسن الدين ليس برام
فهناك جبل الله مضفور القوى وعلمه من سر القضاء ختام

وكمأ كرر ذلك كثيراً في شعره: فلم تبق شبهة في اعتناقه آراء المهازلة.
والى جانب هذا وذاك ذكر التوحيد في الامتعان أنه كان «پتشیع
لـ مذهب أبي حنيفة ومقالة الزیدیة»^(۱)

ولا شك أن هذه الأقوال كلها تدعو إلى العجب وتستثير الدهش
فكيف يمكن الصاحب جاماً لهذه المذاهب؟ فيكون من الشيعة الإمامية
الاثني عشرية ومن الشيعة الزیدیة ومن المعتزلة حنفياً أو شافعياً!

وليس من حقنا أن ننفي اعتناق الصاحب ابن عباد مذهبًا من هذه
المذاهب أمام هذه الأخبار والنصوص المتواترة وأمام كلام الصاحب نفسه
وكلام معاصريه. وليس من حقنا كذلك أمام هذه الأسباب أن نقول إن
الصاحب كان له مذهبًا واحدًا يعينه يتمسك به وينكر ما عداته!

فهل يعني ذلك أن الصاحب كان يجمع هذه المذاهب كلها أو كانت
تجتمع فيه مع ما قد يكون من أوجه الخلاف بينها؟!

إن رأى الذي أطمئن إليه أن ذلك ليس مستحيلًا كما يخيل لبعض
الأذهان التي تصر على أن هناك اختلافاً يستحيل معه الاتفاق ذلك أن
الاختلاف بين هذه المذاهب مهما يكن مداه ليس إلا اختلافاً في الفروع أما
الأصول فإنها واحدة كما قال الله تعالى: «إِنَّ هَذِهِ أُمَّةٌ وَاحِدَةٌ وَإِنَّا
رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونَ» ولا تختلف هذه المذاهب إلا بقدر ما يختلف الأخ مع

(۱) المصدر السابق ۵۵/۱. باقوت ۱۷۵/۶.

أخيه الشقيق في بعض الظواهر العرضية التي لا تنفي وحدة أصلها وتلك الاختلافات العرضية إنما جسستها الأهواء والتزوات التي لا يمكن أن تمس جوهر العقيدة بحال من الأحوال وإن كانت قد أحدثت على مر الزمان آلاماً وجراحًا وأفسدت بين الأشقاء ووسمت الهرة ومزقت وثائق الوحدة وروابط الأخاء وقد استطاع الصاحب ابن عباد أن يكون كذلك لأن واجبه الأسنى كمشارك في تدبير الدولة وسياسة أمورها ورعايتها تقتضي أن يكون كذلك فهو شيعي في ولائه لآل رسول الله وهو معترلي في تفكيره وهو يتشيع لمذهب أبي حنيفة أو لمذهب الشافعي المتبين أو بعبارة أخرى «مر مسلم» يأخذ بأجود ما يرى أو ما يعلم عن إله عقله من هذا ومن ذاك فليس مقلداً لمذهب من المذاهب وإنما هو آخر بأسباب القوة كما يراها في كل مذهب من المذاهب ولا خير في شرعة الانصاف أن يكون على هذا النحو من السلوك فإن أمامة الأصول التي لا يتمارى فيها مسلمان من كتاب الله عز وجل وسنة رسوله عليه السلام ومعه عقله يهديه وقلبه الذي يسير وراء عقله.

هذا ما أستطيع أن أطمئن إليه في تفسير هذه الأخبار وتعليق تلك النصوص.

وقد استطاع الصاحب أن يضرب أروع الأمثلة الإيجابية في ايمانه بما آمن وفي أخذه بما أخذ فنراه يؤلف كتاباً يمد في طليعة ما يذكر من كتبه وأثاره وأعني به كتابه الذي سماه «كتاب الامامة» الذي يذكر فيه فضائل الإمام علي كرم الله وجهه وبهيت بأدله وبراهينه صحة إمامية الخلفاء الراشدين الثلاثة الذين سبقوه، أبي بكر الصديق وعمر بن الخطاب وعثمان بن عفان رضي الله عنهم أجمعين وقد ذكر هذا الكتاب أعلاماً يعتقد بهم

وفي مقدمة محمد بن إسحاق النديم، الذي عاصر الصاحب نفسه وتوفي في السنة التي توفي فيها الصاحب (سنة ٥٣٨هـ) وقد قال في الفهرست في كتاب الصاحب «كتاب الامامة يذكر فيه تفضيل أمير المؤمنين علي بن أبي طالب وثبتت إمامته من تقدمه»^(١) وكذلك القاضي أحمد الشهير بابن خلkan الذي ذكر في كتاب الصاحب «وكتاب الامامة يذكر فيه فضائل علي بن أبي طالب رضي الله عنه وثبتت إمامته من تقدمه»^(٢) وكذلك ياقوت الذي ذكر أن هذا الكتاب «في تفضيل علي بن أبي طالب وتصحيح إمامته من تقدمه»^(٣) وعلى هذا فليس هنالك شئ في صحة هذا الكتاب ولا خلاف في موضوعه وهذا أكبر دليل على ما قررناه من سعة أفق الرجل وأخذه بما يراه وبما يقتضي به وينفي عنه رذيلة التبعص الذي يعمي عن الحق ويفتح للأهواء سبيلاً إلى الضلال. وقد كان هذا في حقيقته مؤكداً لما قلناه من قبل عن فضيلة الاعتدال التي كان يتميز بها الصاحب ابن عباد بين فضائله الكثيرة ومواهبه الفضيلة أيضاً موقفه من القاضي «عبد الجبار ابن أحمد» وهو سني^(٤) معتزلي فقد أعجب بعلمه وفضله حين رأه في بغداد. فلما عاد الصاحب إلى الري استدعاه وكرمه وقدمه ثم ولأه قضاء الري ثم أضاف إليه بعد ذلك قضاء طبرستان وجرجان وما يليهما من الأعمال غير متبع لرأي ولا متشيع لمذهب ولا خاضع لهوى من الأهواء إلا هوى الحق، ومنهج العدل.

(١) الفهرست لمحمد بن إسحاق النديم ١٩٤.

(٢) وفيات الأعيان ٢٢٥/٢.

(٣) معجم الأدباء ٦٦٠/٦.

(٤) أردنا بالسبة معناها العام لا معناها الذي يقابل الاعتزال.

وأخيراً فلعل فيما أبرزناه عن أخلاق الصاحب يلتقي ضوءاً على ما كان يتمتع به من الفضائل النفسية التي رفعته وخلدت اسمه في سجل الخالدين ولعله يعين على تعرف العوامل والمواهب التي تطايرت على تكوين شخصية فلذة من أفذاذ التاريخ العربي والتاريخ الإسلامي.

٤٦ - الصاحب الأديب:

كان الصاحب أحد أعيان الأدباء الذين ملكوا زمام هذا الفن وبرزوا فيه وبه عرروا وذاع صيتهم بين الناس وقد فاق في أدبه وفي تنوع فنونه أكثر أدباء عصره كتابة وشراً.

ولن نظلم الحقيقة إذا قلنا إن ابن عباد كان آدباً من عرفنا من الوزراء الذين ساهموا بفهم هذا الفن الرفيع إلى أرفع مكان رسمي في الدولة بعد منصب الخليفة والملك وهو منصب الوزارة.

وقد شهد للصاحب بذلك الفضل أكثر الناس عداوة له وأدّهم خصومة وأشرهم حقداً عليه وفي مقدمتهم أبو حيان التوحيدي الذي كتب بعد أن فرغ من الاعتذار من التصدي لثليبه أن أول ما يذكر من ذلك ما يدل به على سعة كلامه وفصاحة لسانه وقوته جائش، وشدة منته^(١). وقال أبو منصور الثعالبي في نعنه: «عهته في مجده يشيده وإنعام بجده وفاضل يصطنعه وكلام حسن يصنعه أو يسمعه. ولما كان نادرة عطارد في البلاغة وواسطة عقد الدهر في السماحة جلب إليه من الآفاق وأقاصي البلاد كل

(1) العنة بضم الميم وتشديد التون القدرة والقوة.

خطاب جزل وقول فصل وصارت حضرته مشرعاً لروائع الكلام وبدائع الافهام وثمار الخواطر ومجلسه مجتمعاً لصوب العقول وذوب العلوم ودرر الشرايع. فبلغ من البلاغة ما يهدى في السحر ويقاد بدخول في حد الاعجاز وسار كلامه مسيرة الشمس ونظم ناحيتي الشرق والغرب^(١). وقال فيه الوزير جمال الدين أبو الحسن علي بن يوسف القسطني: «وهذا المصاحب من اشتهرت الألسن في وصفه وسلم إليه أهل البلاغة ما عاناه من ثراه ونظمه وحسن ترتيبه ووصفه^(٢)». ورثاه الشريف أبو الحسن الرضي الموسوي النقيب بقصيدة طويلة من عيون المرائي قال فيها:

واهـا على الأقلام بعدك إنها
لم ترض بعد بنان كفك الا
أفقدن منك شجاع كل بلاغة
إن قال جلى في المقال وجلا
من لو يشا طعن العدا بهرؤوها
وأثار من جريانها قسطلا^(٣)

ووصفه محمد بن اسحاق النديم بأنه «أوحد زمانه وفريد عصره في البلاغة والفصاحة والشعر^(٤).

ولقد كان الصاحب أديباً بروز في فنون الأدب فكان كاتباً من كبار الكتاب وشاعراً من فحول الشعراء وناقداً عارفاً بأصول الأدب وقلم رأينا

(١) بنيمة الدهر ١٨٩/٣.

(٢) انتهاء الرواية على انتهاء النهاية ٢٠٢/١.

(٣) القسطل والقسطل والنبلان: الغار

(٤) الفهرست: ص ١٦٤.

أديباً اجتمع له من أسباب القدرة والتمكن من فنون القول كما رأينا
الصاحب الذي زاحم كل مختص في فنه حتى حاذه وفاته.

ومرجع ذلك الطبع الموهوب والأدب المكسوب والأساتذة العارفون
الذين جلس إليهم وتلقى عنهم أصول الفن مع رغبة شديدة في المعرفة
وحرص على الاطلاع الواسع العميق على غرر الشعر وعيون الشر حتى بلغ
من ذلك الغاية..

وقد كان من أساتذته علماء يشار إليهم بالبنان في تنوع المعرفة
ويعرف لهم بالتجذر في الأدب وفي مقدمتهم أحمد بن فارس الذي
وصف بأنه من أعيان أهل العلم وأفراد الدهر وأنه يجمع اتقان العلماء
وظرف الكتاب والشعراء وهو صاحب الكتب البدية والرسائل المفيدة
والاشعار الجيدة ولعل الصاحب ابن عباد كان أشبه تلاميذه به في العلم
وان فاقه في فن الكتابة وفن الشعر.

٤٧ - الصاحب الناشر: لفظه ومعناه - عصر الصنعة.

وفي طليعة أساتذته الذين أخذ عنهم أصول فن الكتابة أبو الفضل
محمد بن الحسين الذي اشتهر بابن العميد والذي وصفه التعالبي بأنه
الأوحد في العصر في الكتابة وجميع أدوات الرياسة وآلات الوزارة
والضارب في الأداب بالسهام الفائزة والأوحد من العلوم بالاطراف القوية
وكان يدعى الجاحظ الخير، والاستاذ، والرئيس يضرب به المثل في

البلاغة وينتهي إليه في الاشارة بالفصاحة والبراعة مع حسن الترسيل وجزالة الألفاظ وسلامتها إلى براعة المعاني ونفاستها وما أحسن ما قال له الصاحب . وقد سأله عن بغداد عند منصرفه عنها : «بغداد في البلاد كالاستاذ في العباد» وكان يقال: بذئت الكتابة بعد الحميد وختمت بابن العميد.

ويتمثل في هذا العصر الذي أنجب أبا الفضل بن العميد وتلميذه الصاحب ابن عباد ازدهار الحضارة ووضوح أثرها في فن الكتابة التي أخذ أسلوبها يميل إلى الزخرف والتألق والصنعة فامتازت كتابة الرسائل في هذا العصر امتيازاً ظاهراً بلزوم السجع القصير الفقرات لاسيما الرسائل السلطانية وباستعمال الجناس وبعض أنواع البديع وباستخدام معانى الشر وألفاظه فيها بدل الأبيات السائرة والحكم المأثورة حتى كادت الرسائل تكون شعراً متوراً وازدادت فيها عبارات التعظيم والتغفيف للملوك والأمراء والتهليل بشأنهم والاقتباس من كلام البلاء وتضمين الأفذاذ من أبيات الشعراء. ولا عجب من ذلك اذ كان جميع كتاب دول الشرق الذين اشتهرت على أيديهم هذه الطريقة من الفرس وهم أميل الناس إلى العلية اللفظية والغلو في عبارات التمجيد والتعظيم. ومع هذا لم تفت كتابة هؤلاء جزالة اللفظ وانتقاءه وحسن استعماله في مواضعه وجمال أسلوبه.

وكان من الممكن أن تكون هذه الطريقة غير منهكة لقوى البلاغة لو لم يستشر داؤها ويسمو استعمالها بعد عصر الذين انتحلوها اذ لم يكن من بعدهم على مثل سنتهم في الاحاطة باللغة وعلومها وتربيتها ملكتها فأخذلوا التقليد في اللفظ كما حرموا الاجادة في المعنى.

وكان ابن العميد أقليهم التزاماً للمسجوع وأقربهم إلى انتقال المطبوع وكان كثيراً ما يجعل فقر رسائله أبياتاً مثورة ويلسع فيها إلى الأمثال المشهورة والأحاديث المأثورة حتى انطبع كتابته على التمثيل والحكمة فكان منها فصول مائرة ومعان نادرة^(١). ثم يكون الصاحب ابن عباد ثالثي ابن العميد في حلبه وأبلغ من سلك طريقه غير أنه أوقع بالجنس والسجع وكان تياهاً شديد العجب بنفسه.

والحقيقة أن الصاحب أسرف في ولوعه بالسجع إسراهاً عجياً حتى رنق هذا السجع المتتابع رونق كلامه وحسن نظامه والتأنق في الصياغة وتحير الألفاظ وجودة التأليف وحسن التنسيق والرصف كل ذلك مطلوب بل هو ضروري في الفن الأدبي لأنه الذي يميز فنية الأدب صاحب القلم أو صاحب اللسان من غيره من الذين يصطنعون اللغة ويعبرون بها عن أغراضهم ومقاصدهم. فقرة العبارة ومتانة سبكها وجودة رصفها وتحير ألفاظها دليل على تلك الفنية التي نشدها في الأعمال الأدبية وفي الجنس والسجع والازدواج موسيقى تأنس بها النفس وتطرد لها الأذن ولكن تتابع النغم الريتيب، يشعر بالتكلف ومجافاة الطبع لأن الفن جمال وليس جمال الفن الأدبي محصوراً في هذا الضرب من التنسيق والتنسيق حتى يفرغ الأدب ما في كناته فيه فيطغى على ما يتطلب في العمل الأدبي من فخامة المعانى وروعة الخيال. وقد نجد في كلام الصاحب بل في كثير من كلامه ما شئنا من وفرة المعنى وروعة الخيال غير أن تلك الموسيقى المتراوفة في الأسلوب تعنى على ما نتصوره العبارة من أسباب

(١) تاريخ أداب اللغة العربية في العصر العباسي للأستاذ أحمد الاسكندرى ص ٢١٧ .

القوة في المعاني وأصالتها إذا كانت ذات قوة وذات أصالة فليس الفن الأدبي موسيقى فقط وإن كانت الموسيقى مطلوبة فيه ولكنها الموسيقى المعلبوعة التي لا تشعر بالتكلف والتعمل في طلبها ولا تتغلب على سائر الخصائص المميزة لفن الأدب.

ومن هنا أساء سمع الصاحب إلى أدبه وشوهرت صناعته محاسن فنه وكان في هذه الإساءة والتشويه إماماً للذين كانوا بعده في عصور الفلكلمة والجهل والذين صار أدبهم كالطلاء على غير بناء وكالصدى الذي لا يرجع إلى أصل. وهي على كل حال طبيعة المصر التي تؤثر في كل شيء فيه.

ولقد وجد أعداء الصاحب وحساده في ذلك الغلو مجالاً للنبيل من أدبه والفض من طبعه فنسبوه إلى التكلف ووصفه بعضهم بالرقاعة.

وأكبر الظن أن الذي دفع الصاحب إلى هذا المنهج غير ما ذكرنا من طبيعة عصره وأسلوب الذين سبقوه من أساتذته إدلاه بثقافته اللغوية وتلك الصفة تقتضي ثقافة لغوية واسعة ومعرفة بالألفاظ المتسبة والمتجازنة والمتوازنة والقدرة البارعة على تأليفها وذلك ما لا يحدهه كثير من أرباب الصناعة.

٤٨ - ارجاله الكلام البديع:

ولكن المزبة التي توافت للصاحب ولم توافر لغيره هي تلك القدرة الفائقة على هذا التأليف المصنوع من غير روية ولا تحضير ولا تخبير.

حتى أصبحت تلك الصنعة طبعاً فيه وحتى أصبح غالب كلامه المرتجل يجري هذا المجرى من الكلام الأنبيق المسجوع فتراه يقول لأحد رجاله الذين يتولون الكتابة والحساب ولم يعجب الصاحب ما كتبه وما حسبوه: «أهذا حساب أهذا كتاب؟ أهذا تحرير؟ أهذا تقرير؟ أهذا تفصيل؟ أهذا تحصيل؟ والله لو لا أني ربتك في داري وشغفت بتخريحك ليلي ونهارك ولتك حرمة الصبا ويلزمني رعاية الآباء لأطعمتك هذا الطومار^(١) وأحرقتك بالنفط والفار وأدبت بك كل كاتب وحاسب وجعلتك مثلاً لكل شاهد وغائب أ مثلني يومه عليه ويعلم فيما لديه، وأنا خلقت الحسابه والكتابه، والله ما أنام ليلة الا وأحصل في نفسي ارتفاع العراق ودخل الأفاق. أغرك مني أني أجررت رسنك^(٢) وأخفيت قبيحك وأبدت حسنك؟ غير هذا الذي رفعت واعرف قبل وبعد ما صنعت واعلم أنك من الآخرة قد رجعت، فزد في صلاتك وصدقتك».

وجريدة يوماً في مجلسه ذكر أبي سعيد الأبهري المتتكلم فقال: لعن الله ذلك الملعون المأبون المأبون جاءني بوجه مكluج وأنف مفطع ورأس مسلح ولسان مكبح فكلمني في مسألة الأصلح فقلت له: اعزب عنك لعنة الله لقيت الأبرح الذي يلزم ولا يربح».

وكثيراً ما كان يدعوه نطلب المسجع إلى استعمال الغريب الموحش المتناظر القبيح وقد شتم يوماً رجلاً فقال «لعن الله هذا الأهوج الاعوج

(١) الطومار: الصحيفة والمجمع طوابير.

(٢) الرسن: الخيل وهذا كثولهم: جبلك على عاريفك. يريد تركتك لنفسك.

الأقلج الأفعج^(١) الذي إذا قام تخلج^(٢) وإذا مشى تدحرج وإذا عدا
تفجفج^(٣). ودخل يوماً دار الإمارة الفيرزان المجوسي فقال له في شيء
خاطبه فيه: «إنما أنت مخش مجش لا تهش ولا تيش ولا تتش^(٤)» فقال
الفيرزان «أيها الصاحب برهت من النار إن كنت أدربي ما تقول إن كان
رأيك أن تشتمني فقل ما شئت بعد أن أعلم فإن العرض لك والنفس فداء
لست من الزنج ولا البربر كلمنا على العادة التي عليها العمل والله ما هذا
من لغة آبائك الفرس ولا من أهل دينك من أهل السواد وقد خالقنا الناس
وما سمعنا منهم هذا النمط» فقام الصاحب مغضباً.

وقال ابن عباد لشيخ من خراسان في شيء جرى، «والله لو لا شيء
لقطعتك تقطعاً وبضعتك تبضعاً وزععتك توزيعاً ومزععتك تمزيناً وجزعتك
تجزيناً وأدخلتك في خزانتك . ثم وقف ساعة ثم قال ، . جميعاً» قال: أبو
حيان في وصف هذه الحكاية وهو راويها وملح هذه الحكاية نبتر في
الكتابه وطربها ينقص في الرواية دون مشاهدة الحال وسماع اللفظ
وملاحة الشكل في التحرك والتشي والتربع والتهادي ومد اليد ولبي العنق
وهز الرأس والأكتاف واستعمال الأعضاء والمفاصل.

وكان كثير من سجع الصاحب يدعو إلى العجب ويستوجب الضحك
حقاً فقد قال يوماً عن أبي الفضل بن العميد أنه كان، سيداً لم يشق غبارنا

(١) الأفعج وهو تدانى صدور القدمين وتبعاد العقين.

(٢) أي اضطراب.

(٣) أي انفوج ما بين رجليه عند المشي وهو أقبح من الفوح.

(٤) أي لا ينال منك غرض.

ولا أدرك شوارنا^(١) ولا مسع عذارنا ولا عرف غرارنا لا في علم الدين ولا فيما يرجع إلى نفس المسلمين فاما ابنه يعني أنها الفتاح، فقد عرفتم قدره في هذا وفي غيره طياس، فلاش^(٢)ليس عنده إلا قاش^(٣) وقماش مثل ابن عياش والheroي الحواشي وولدت والشعرى في طالعى. ولو لا دقيقة لأدركـتـ النبوة وقد أدركـتـ النبوة إذ قـمتـ بالـذـبـ عنـهاـ والنـصـرـةـ لـهـاـ فمنـ ذـاـ يـجـارـنـاـ أوـ يـاءـنـاـ وـيـغـارـنـاـ^(٤) أوـ يـاءـنـاـ وـيـشـارـنـاـ^(٥).

ومـاـ يـدـلـ عـلـىـ وـلـوعـ اـبـنـ عـبـادـ بـالـسـجـعـ وـمـجاـوزـتـهـ الـحدـ فـيهـ بـالـإـفـراـطـ قولـهـ يـوـمـاـ «ـحـدـثـنـيـ اـبـنـ نـاـشـ وـكـانـ مـنـ سـادـةـ النـاـشـ»ـ جـعـلـ السـينـ شـيـباـ وـمـرـ فـيـ هـذـاـ الـحـدـثـ.ـ قـالـ أـبـوـ حـيـانـ إـنـ الصـاحـبـ سـعـلـ عـنـ هـذـاـ فـقـالـ:ـ هـذـهـ لـغـةـ وـكـذـبـ وـكـانـ كـذـوبـاـ^(٦)ـ قـالـ:ـ وـكـانـ كـلـفـهـ بـالـسـجـعـ فـيـ الـكـلـامـ وـالـقـوـلـ عـنـ الـجـدـ وـالـهـزـلـ بـزـيدـ عـلـىـ كـلـفـ كـلـ مـنـ رـأـيـاهـ فـيـ هـذـهـ الـبـلـادـ.ـ قـلـتـ لـابـنـ الـمـسـيـسـ:ـ أـنـ يـلـغـ اـبـنـ عـبـادـ فـيـ عـشـقـهـ لـلـسـجـعـ؟ـ قـالـ:ـ يـلـغـ بـهـ ذـلـكـ لـوـ أـنـهـ رـأـىـ سـجـعـةـ يـنـحـلـ بـمـوـقـعـهـاـ عـرـوـةـ الـمـلـكـ وـيـضـطـرـبـ بـهـاـ حـبـلـ الـدـوـلـةـ وـيـحـتـاجـ مـنـ أـجـلـهـاـ إـلـىـ عـزـمـ ثـقـيلـ وـكـلـفـةـ صـعـبةـ وـتـجـشـمـ أـمـورـ وـرـكـوبـ أـهـوـالـ لـمـاـ كـانـ يـخـفـ عـلـيـهـ أـنـ يـفـرـجـ عـنـهـاـ وـيـخـلـيـهـاـ بـلـ يـأـتـيـ بـهـاـ وـيـسـعـلـهـاـ وـلـاـ يـعـبـأـ بـجـمـيعـ مـاـ وـصـفـتـ مـنـ عـاقـبـتـهـاـ.ـ ثـمـ يـقـولـ:ـ بـالـلـهـ يـاـ أـصـحـابـنـاـ حـدـثـونـيـ:ـ أـهـذـاـ

(١) يـقـالـ لـلـدـابـةـ شـوـارـاـ إـذـ عـرـضـتـهـ لـلـبـيـعـ لـأـجـرـاتـهـ أـمـامـ المـشـرـىـ.

(٢) الطـيـاثـنـ الطـائـشـ وـالـقـلاـشـ:ـ الـخـتـالـ.

(٣) القـاشـ اـسـمـ لـلـقـماـشـ كـانـهـ سـمـيـ بـاسـمـ صـوـتهـ.

(٤) يـغـارـنـاـ مـنـ غـارـةـ إـذـ لـجـ مـعـهـ فـيـ الـحـصـوـمـةـ.

(٥) المـشـارـةـ:ـ الـمـجـادـلـةـ.

(٦) معـجمـ الـأـدـبـاءـ ٢١٣/٦ .

عقل رئيس؟ أم بلامة كاتب؟ أم كلام متساكم؟ لم تجنون به وتتهاكون عليه؟ وتفيغون أهل الفضل به؟ هل هناك إلا الجد الذي يرفع من هو أنزل منه ويوقع من هو أرفع منه ولقد حدث هذا الحديث أبا السلم الشاعر فأنسدني الشاعر:

سبحان من أنزل الدنيا منازلها	وميز الناس مخصوصاً ومرموقاً
فماقل فطن أعيت مذاهبه	وجاهل خرف تلقاه ممزروقاً
كانه من خليج البحر مفترف	ولم يكن بارتقاء القوت محققاً
هذا الذي ترك الالباب حائرة	وصير العاقل النحير زنديقاً

والحقيقة أنه لو كان الذي رواه أبو حيان من كلام الصاحب من أمثال ما مر صحيحاً لكان الحكم الذي أصدره عليه صحيحاً ول كانت الأوصاف القبيحة التي وصفه بها من الرقاعة والجنون وغيرهما صحيحة كذلك.

٤٩ - احتمال الافتراض من أبي حيان:

أما أن يكون أبو حيان قد افتعل هذه الأمثال ليشوه تاريخ الرجل ويزري بأدبه وفنه فعلم ذلك عند الله وحسابه عند الله لأننا لم نقرأ هذه المثل إلا في حكايات هو راويها وأمامنا من كتب عنه الفصول الطوال كأبي منصور الشعالي الذي كتب في الصاحب وفي أخباره ونوادره وفي مجالسه وشعره ونشره قدرأً كبيراً^(١) لا نقرأ فيه مثل هذا الأدب الفت الذي رواه أبو حيان

(١) استفرق الجزء الذي كتبه الشعالي عن الصاحب في «تيهية الدر» نحو مائة صفحة كبيرة ٢٨٩ - ١٨٨ من الجزء الثالث. مطبعة حجازي بتحقيق الشيخ محمد سعى الدين عبد الحميد.

وكان أبا حيان كان ولوعاً يمثل تلك الطرائف بروبيها أو يولفها بقلمه البارع وخياله الخصب ويتم رواياته برواية أخرى لا نقل عن أمثال ما من طرافة فيذكر أنه بلغ من ركاكه الصاحب أنه كان عنده أبو طالب العلوي فكان إذا سمع منه كلاماً يسجع فيه وخبراً ينمقه وبرويه يلق^(١) عينيه وينشر من خريه ويرى أنه قد لحقه غشى حتى يوش على وجهه ماء الورد فإذا أفاق قيل: ما أصحابك؟ وما عراك؟ ما الذي نالك وتفساك؟ فيقول: ما زال كلام مولاي يروقني ويؤنقني^(٢) حتى فارقني لبي وزايلني عقلي وتراحت مفاصلني وتخاذل قلبي وذهل ذهني وحيل ببني وبين رشدي. فيتهلل وجه ابن عباد عند ذلك ويتفتش ويضحك عجباً وجهاً ثم يأمر بالحباء والتكرمة ويقدمه على جميعبني أبيه وعمه. ثم يسوق أبو حيان بعد هذه المقدمات نتيجة يقره عليها كل من يصدق كلامه وهي «من ينخدع هكذا فهو بالنساء الرعن أشبه وبالصبيان الضعاف أمثل»^(٣) أم ترى أن ابن عباد كان يتفكه أو يتذر بمثل هذه الأقوال في مجالسه التي كانت تتسع لآيات الجد كما كانت لا تضيق بفنون من الفكاهة والمجون؟ ولم يكن يدرى أن هنالك حساداً يحصون عليه كلماته و يجعلون من سباته حسناً؟ كل ذلك تتسع له أبواب الأفراض وتبسط أمامه وجوه الاحتمال ولكن هل كان هذا التكلف البادي في مثل ما سقناه هو طبيعة أدب الصاحب؟ أو أنه وحده يمثل خصائص أسلوبه في الكتابة؟

(١) يقال بذلك الباب وأبلقه اذا فحمه كله

(٢) مؤنقني: بمحبني.

(٣) معجم الأدباء ٢٢٨/٦

٥٠ - خواج من أدبه الكتابي:

أدب الرسائل.

إن بين أيدينا كثيراً من نثر الصاحب في رسائله ومقاماته وهي ترقى به وبقنه الكتابي إلى الذروة والستانم في عالم الفن الكتابي والكلامي. وهناك شيئاً من نعطف كتابته لتتف بنفسك على حظ الصاحب من الأدب وتنزله ما هو أهل له من رفيع المنزلة بين الأدباء وحملة الأقلام. وهو فصل من رسالة بعث بها إلى ابن العميد جواهراً عن كتابه إليه في وصف البحر:

«وصل كتاب الأستاذ الرئيس صادراً عن شط البحر بوصف ما شاهد من عجائبه وعما من مراكمه ورأه من طاعة آلاته للرياح، كيف أدارتها واستجابة أدواتها لها متى نادتها وركوب الناس أشباحها وأخوف بمرأى وسمع والمنون بمرقب، ومطلع والدهر بينأخذ وترك والأرواح بيننجاة وهلك، إذا فكروا في المكاسب الخطيرة هان عليهم الخطر وإذا لاحت غرر المطالب الكثيرة حبب إليهم الغرر^(١) وعرفت من تمييه كوني عند ذلك بحضرته وحصولي على مساعدته. ومن رأى بحر الأستاذ كيف يزخر بالفضل وتلاطم فيه أمواج الأدب والعلم لم يتعجب على الدهر فيما يفيته من منظر البحر ولا فضيلة عندي أعظم من اكبار الأستاذ لأحواله واستعظامه لأحواله كما لا شيء أبلغ في مفاخره وأنفس في جواهره من وصف الأستاذ له فإني قرآن منه الماء السلسال لا الزلزال^(٢) والسحر الحرام لا الحلال وقد علمت أنه كتب ولما يخطر بفكرة سعة صدره فلو فعل ذلك لرأى البحر

(١) الغرر بفتح الغين الخطر.

(٢) يقال ماء سلس وسلسال وسلام سهل الدخول في الحلق لعدوته وصفاته.

وشتلا^(١) لا يفضل عن التبرض^(٢) وثمد^(٣) لا يكتر عن الترشف:
وكم من جبال جفت تشهد أنك الـ جبال وبحر شاهد أنك البحر
وكتب في تنوير باكورة خلاف قد نور وأهدى قضيبياً منوراً منه:

«لنثير الخلاف فضائل لا تحصى ومحاسن تطول أن تستقصي منها
أنه أول ثغر يسم عنه الربيع وبضحك ودر يعقد على القضايان ويسكب
ولتماهله اذكار بقدود الأحباب وتهبج لساواكن الاطراب. وحمل إلى
قضيب منه ورداهه متعادلة ولذاته متقابلة فأنفذته مع رقعتي هذه إليك
وسألت الله أن يعيده ألف حول عليك وقلت:

وقضيب من الخلاف بدمع	مستحسن بأحسن الترصيع
قد نعى شدة الشتاء إلينا	وسعى في جلاء وجه الربيع
وحكى من أحب عرفاً وظرفاً	واهتزازاً بهبيرة ماء ضلوعي
رقة ما نظمت نحو بدمع الـ	مجد حاكى الربيع من صنيعي

وكتب رقة مع أفلام أهدأها وأكبر الظن أنه أهدأها إلى أستاذه أبي
الفضل بن العميد: «قد خدمت دواة مولاي بأفلام تخفف بأنامله
وتتحمل نفحات فواضيله وتأنقت في بريها فأنت كمناقير الحمام واعتدال
الهام خمسة منها مصرية مقومة عليها حلل مهمة وعشرة منها بيض كأياديه
وأيام مؤملية والله يديم له مواد نعمته ويوقنني لشراط خدمته».

(١) الوشن الماء القليل يتحلى من جيل أو صخرة ولا يتصل قطره.

(٢) وبرض الماء خرج وهو قليل والتبرض أخذ القليل.

(٣) التند بسكون البيم وفتحها، الـ ، القليل.

وهذه رسالة كتبها إلى أبي علي الحسن بن أحمد في شأن أبي عبدالله محمد بن حامد قال التعالبي: وسمعت الأمير أبا الفضل عبيد الله ابن أحمد يسردها فزادني جريها على لسانه وصدرها عن فمه إعجاباً بها وهي:

«كتابي هذا وقد أرخى الليل سدوله وسحب الظلام ذيوله ونحن على الرحيل غداً إن شاء الله إذا مد الصباح غرره قبل أن يسفع حجوله ولولا ذلك لأطلته كوقوف العجيج على المشاعر ولم أقصر منه على زاد المسافر فإن التحمل له وسعي الحقوق لدى حقيق أن أتعب له خاطري ويدى وهو أبو عبدالله الحامدي أعزه الله تعالى كان واقاناً مع ذلك الشيخ الشهير أبي سعيد الشيبسي السعيد رفع الله منازله وقتل قاتله يكتب له فأنسنا بفضلة وأنسنا الخير من عقله. فلما فجع بذلك الصحبة وبما كان له فيها من القرية لم يرض غير بابي مشرعاً وغير جنابي مرتعاً وقطع إلى الطريق الشاق مؤكداً حفأ لا يشق غباره ولا ينسى على الزمان ذماره. وكنت على جناح النهضة التي لم يستقر نواها ولم تبن حصاها ولم تلق عصاها فأمرج البحر المبتدأ الامر القريب المعهد بوطأة الدهر حامل عليه بالمركب الوعر.

«فردته إليك يا مهدي لتسهل عليه حجابك وتمهد له جنابك وترصد له عملاً خفيفاً الثقل ندي الظل فإذا اتفق عرضته عليه ثم فوضته اليه. وهو إلى أن يتყى ذاك ضيق وعليك فراه وعندك مربعه ومشتاه. ويريد اشتغالاً بالعلم ليزيده في الاستقلال إلى أن يأتيه إن شاء الله خبرنا في الاستقرار ثم له الخيار إن شاء أقام على ما وليته وإن شاء لحق بنا ناشراً ما أوليته وقد وقعت

له إلى فلان بما يعينه على بعض الانتظار إلى أن تختر له . أهدك الله . كل الاختيار فأوزع إلى بتعجيله واكتفي شغل القلب بهذا الحر الذي أفردني بهتأميله إن شاء الله تعالى».

وهذه رقعة كتبها إلى القاضي أبي بشر الفضل بن محمد الجرجاني عند وروده بباب الري وافداً عليه:

تحديث الركاب بسمير اروى إلى بلد حططت به خيامي
فكدت أطير من شوقي إليها بقادمة كقادمة الحمام

أحق ما قيل أمر القادم؟ أم ظن كلامي الحال؟ لا والله بل هو درك العيان، وأنه ونبل المتن سبان فمرحباً أيها القاضي براحتك ورحلتك بل أهلاً بك وبكافة أهلك ويا سرعة ما فاح نسيم سراك ووجدنا ريح يوسف من رياك فتح المطى تزل غلتى بسقيايك. وتزح علتي بلقيايك ونص على يوم الوصول لنجعله عيداً مشرفاً وتخذنه موسمًا ومعرفاً ورد الغلام أسرع من رجع الكلام فقد أمرته أن يطير على جناح نسر: وأن يترك الصبا في عقال وأسر!

سقى الله دارات مررت بأرضها فأدتك نحوى يا زيد بن عامر
أسائل قرب أرجى أن أنا لها بلقيايك قدر زحزحن حر الهواجر

وكتب رقعة إلى صديق أهدى إليه مصحفاً: البر . أدام الله الشيخ . أنواع تطول به أبواب وتقصر عنه أبواب فإن يكن فيها ما هو أكرم منصباً وأشرف منسباً فتحفة الشيخ إذ أهدى ما لا تشاكله النعم ولا تعادله القيم كتاب الله

وبيانه وكلامه وفرقائه ووجهه وتنزيله وذهاب وسبيله ومعجز رسول الله ﷺ
ودليله. طبع دون معارضته على الشفاه وختم على الخواطر والأفواه فقصر
عنه التقلان^(١) وبقى ما بقي الملوان^(٢) لائع سراجه واضح منهاجه منير
دليله عميق تأويله يقضى كل شيطان مريد ويذل كل جبار عنيد وفضائل
القرآن لا تحصى في ألف قرآن فأصف الخط الذي بهر الطرف وفاق
الوصف وجمع صحة الأقسام وزاد في نخوة الأقلام بل أصفه بترك
الوصف فأخباره آثاره وعينه فرار، وحقاً أقول اني لا أحسب أحداً ما خلا
الملوك جمع من المصاحف ما جمعت، وابتدع في استكتابها ما ابتدعت
وان هذا المصحف لزائد على جميعها زيادة الحج على العمرة.

٥١ - أدب المهدود:

كانت رسائل الدولة ذات البال تصدر من ديوان الرسائل وإليه ترد
ولذلك كان لا يتولاه من رجال الدولة إلا فحول البلاغة وأهل العلم
والأدب والمعرفة بضرور السياسة ومراسيم الملوك وكان النظر في ديوان
الرسائل غالباً للوزير إما مستقلّاً به أو مستبيحاً عنه لموضعه عن ضبط أسرار
الدولة وحفظ كرامتها وتفحيم شأنها في أعين الرعية والملوك فكان وزراء
الامراء هم شيخ الكتاب وأساتذتهم.

وقد تعددت موضوعات الكتابة بتنوع أعمال الدواوين الكثيرة والرسوم
العديدة التي استحدثت في الدولة من كتابة بيعة ل الخليفة أو ولی عهد أو

(١) التقلان: الانس والجن.

(٢) الملوان الليل والنهار.

عهد لوالٍ أو قاضٍ أو منشور بإعلان أمرٍ سياسٍ أو دينيٍّ وبعض هذه الأمور ككتابه عهد الوالي أو القاضي كان يكتب في عصر الخلفاء الراشدين وفي عصر بني أمية غير أنه كان يكتب موجزاً ساذجاً يقتصر فيه على نص التولية وموجها لايجاز. أما في عصر الدولة العباسية فقد كان كل نوع من الانواع يكتب بغاية الاسهاب والاطناب فالبيعة كانت تشنن بالايمان المحرجة التي تفنن الكتاب والفقهاء في اختراعها وكان يفصل فيها ما يجب لل الخليفة على الامة وما يجب للأمة على الخليفة وعهد الوالي أو القاضي يفصل فيه الصفات الحسنة التي رغبت الخليفة في اختياره وعدد البلدان والتواحي التي يتولاها ونوع العمل الذي يعمله من صلاة أو خراج أو حرب أو قضاء والوصايا بالأمور التي يجب أن يأخذ بها الرعية وغير ذلك مسالٍ يمكن له أصل أو كان له أصل غير مستوفٍ^(١).

تلك هي الرسائل الديوانية التي بروزت بين فنون الكتابة الإنسانية، بل إن هذه الرسائل الديوانية هي التي أبرزت عدداً كبيراً من رجال القلم في أدبنا العربي، وعلى قدر خطورة هذه الرسائل وموضوعاتها كان خطراً كتابتها وعظم شأنهم في الحياة العامة بين مدبري شؤون الدولة ومصرفي أمورها وكذلك في حياتهم الخاصة إذ ترتب على مزاولتهم هذا الفن بروز شخصياتهم وتقدمهم على أكثر طبقات المجتمع.

ولقد كان الصاحب من أولئك الوزراء الكتاب الذين ارتقى بهم القلم إلى درجة التدبير فلما وصلوا إلى درجة التدبير والتصريف لم ينسوا

(١) تاريخ آداب اللئه العربية في العصر العباسى للإسكندري ص ٣٢.

ماضيهم الفني في صناعة القلم بل اتخذوا من هذه الصناعة ما يدعم الوظيفة والمنصب. وهكذا خدم القلم الدولة فذر أمورها وحل مشاكلها، وخدمت الدولة أصحاب القلم فبلغوا أقصى ما يمكنه أصحاب الصناعة الفنية.

وقد فرأتنا بعض النماذج الرسائل الأخوانية التي دمجتها براعة الصاحب في الوفاء وفي الوصف وفي الشفاعة وفي الشكر وفي بث الأشواق وهي رسائل تفيض بشرح المواتف الإنسانية وتعبر عن المشاعر التي يجدها الكتاب نحو مظاهر الحياة ونحو الأحياء.

وبقي أن نذكر شيئاً من رسائله الديوانية في ناحية واحدة ولكنها أهم نواحيها الكثيرة ودعائياً المتعددة وتلك هي «العهود» التي كان يكتبها الصاحب عن الخليفة أو عن السلطان في إسناد بعض أعمال الدولة إلى بعض الرجال التي اجتمعت فيهن الصفات التي ترشحهم لولاية تلك الأعمال.

وسنرى الصاحب في كتابة هذه «العهود» كما عهدناه في سائر كتاباته الأخوانية أو غيرها رجل الصنعة البليغ ولكن هذه الصنعة التي أصبحت طبعاً عند الصاحب حتى في كلامه الجاري وفي حديثه المرسل تتوارى هذه الصنعة وكأنه لم تكن صنعة إمام فيض المعاني البارزة والأفكار الواضحة وال تعاليم الرشيدة فلا يجد أبداً أن في هذه العهود عبارة مقصورة أو لفظاً مجتبأ وإنما هي العبارة الناصحة والمحملة لأجدود المعاني وأوضحتها. وقد استجمعت تلك العهود سائر الخلال المستحبة والمثل المتنمية في شاغلي تلك المناصب، ومن تستند إليهم تلك الأعمال، بحيث يعز على الباحث أن يجد نقصاً إذا طلبه أو يشعر بخطاً فيما يبني

أن يكون كما تصوره الصاحب من المثل والفضائل والحقوق والتکاليف والأداب التي تعطلها الانسانية وتقتضيها رعاية العمل والنهوض به على أكمل وجه وتلك ميزة كبرى للعمود الذي كتبها الصاحب ففيها دليل عقله وحسن تقديره وفيها أروع المثل بناء الامة الفاضلة والدولة الناهضة.

ونسرع بك إلى نموذج من هذه «العمود» كتبه الصاحب إلى قاضي القضاة عبد الجبار بن أحمد حين عينه في ولاية القضاء في جرجان وطبرستان وما يليهما من أعمال بالإضافة إلى قضاء الري الذي كان يتولاه من قبل وقد أشرنا إلى فاتحة هذا العهد عند كلامنا على مدى وفاة هذا القاضي لذكر ولی نعمته الصاحب ابن عباد ونذكر بقیته فيما يأتي:

٥٢ - تقوی الله:

«أمره بتقوی الله مفتاح الخيرات المنجية ومغلاق الشهوات المردية الداعية من استشرها لباساً وجعلها قاعدة وأساساً إلى أجدى الأقوال وأذكى الأفعال وأرضى الأحوال الكالية من اطرحها وراء ظهره وحرفها عن سبيله وأمره خسران الصفة ديناً ودنياً وانحلال الرقة أولى وأخرى، لا تقبل منه حسنة ولا تکفر عنه سيئاته يوم تسود وجوه المجرمين ونبیض وجوه المؤمنين **﴿وينجي الله الذين انقوا بمحازتهم لا يمسهم السوء ولا هم يحزنون﴾**.

(٢) كتاب الله:

وأمره بأن يجعل مصباحه في ظلم الامور واستجاجه في الحكم بين

الجمهور كتاب الله الذي أنزله وبينه وفصله وأودعه ما قدم وما حدث
ونصبه حجة على من ورث وورث لا تنزف بحاره ولا تبلغ أغواره ولا
تكشف أضوائه ولا تختلف أنواوه^(١) ولا تلتبس مذاهبه ولا تنقضي عجائبه
قاطعة أحکامه ساطعة أعلامه كاف الزامه. إليه يرجع كل ذاہب وبه يقمع
كل ناکب ليس عن محجته معدل ولا يستبدل بمحجته مستبدل **﴿تنزيل من**
حكيم حميد﴾.

(٣) سنة رسول الله:

«أمره بأن يتخذ سنة رسول الله **عليه السلام** وعلى آله تالية كتاب الله في
الاقناء وجارية مجراه في الاقفاء اذ كانت العروة التي لا تنفص والعمدة
التي لا تشتمل والصراط الذي لا يملي والبرهان الذي لا يستحيل قد رتبها
الله بياناً لما أشكل ولساناً لما أعضل وعياناً لمن غاب وليقافاً لمن ارتاب
فالمتمسك بها ناج يوم الخيفة، راج للدرجات المنيبة والمدخل بها
مدخول دينه حفيقة موازنه ومن برد الله به خيراً يهسيء له من أمره رشداً».

(٤) اجماع المسلمين:

«أمره بأن يتلقى الاجماع بالاتباع ويحترس معه من الابتداع والاختراع
فقد خص الله بنفضيلته أمتنا دون الأئمما الماضية، وشرفهم به على القرون

(١) الانواء جمع نوء وهو سقوط نغم من السنازل في الغرب مع الفجر وملوع رفيعه من الشرف
يقابلها من ساعتها في كل ثلاثة عشر يوماً وكانت العرب تصنف الانطار والرياح والحر والبرد
إلى الساقط منها وقبل إلى الطالع منها لأنه في سلطانه.

الخالية وهو حبل من الله ممدود وكتف في دين الله ممهود لا تضطره
أسبابه ولا يهتك حجابه ولا تعمل الآراء مع وجوده ولا تسوغ العبرة^(١) بعد
معقوده (ومن يتبع غير سبيل المؤمنين نوله ما تولى ونصله جهنم وساعت
مصيرأ). (٢)

(٥) القياس والاجتهاد:

«وأمره إذا عرض له ما لم ي Finch به الكتاب نصاً وأسماعاً وإن لم يفرط
فيه تضيئاً ولابداعاً ولم تأت به السنة كشفاً وتنزيهاً وإن اشتملت عليه
فحوى وتنبيهاً ولم يسبق فيه اتفاق ولا يسع من بعده افتراق، أن ينظر نظراً
يفعمه ويصارب الفكر فيه فلا يأسمه فإن الله إذا علم أن الحق بغيته والصلاح
نبيته أدى به إلى ما يريد ووفقه فلا يضل ولا يبعد ورفده بصائب الخواطر
وهيأ له أجلى الآشاء والناظائر ولم يهم سبيل الرشاد دونه وجعله بلطفة من
الذين يستبطلونه»^(٣).

«وأمره بأن يكون اختياره إذا اختار وإشاره إذا اعتمد الإثمار من أقوال
السلف المشهورين وفقهاء الأمة المذكورين رحمة الله عليهم أجمعين لا
يخرج بالذاهب الشاذة ولا يتقبلها ولا يترخص في الأقوال الشاردة ولا
يتحملها ويصدر أحکامه عن قول شهير وبيان مستثير واستبصار واضح

(١) العبرة: الاعتبار وفي مصطلح الفقهاء القياس.

(٢) يشير هنا إلى الآية الكريمة، (ولو ردوه إلى الرسول وإلى أولي الأمر منهم لعلمه الذين
يستبطلونه منهم).

المهاج واعتبار متلائمه السراج ﴿وَاللهُ يَهْدِي مِنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾.

(٦) الشورى:

«وأمره بالاستظهار على أحكامه بالمشورة والمبادرة لأولي المعارف الموفورة من الفقهاء الذين جعلهم الله للأحكام فنية وللإسلام حلية. فإنه وإن كان موصوفاً بالاستقلال فما أحد خلق للكمال وقد جعل الله في وفور العدة مزية لم يجعلها للوحدة وعرف في الاستمداد والاستكثار فضيلة لم يوجد لها في الاستبداد والاستئثار ثم له الإ مضاء إذا استشار والقضاء إذا تخير واستخار فقد أفصح منطوق الذكر بقوله تعالى ﴿وَشَاوِرُوهُمْ فِي الْأُمْرِ﴾».

(٧) أخلاق القاضي ومسؤوليته:

«وأمره بأن يهذب نفسه قبل أن يهذب عمله ويؤدب عادته قبل أن يؤدب من قبله ويروض أخلاقه على الحلم فإنه أَحَمَّدَ مَا اعْتَادَ وَالصَّبْرُ فَإِنَّهُ أَفْضَلُ مَا ارْتَادَ لَهُ يَقْضِي فِي حَالٍ قَلْقٌ أَوْ غُلْقٌ أَوْ غَيْظٌ أَوْ حَنْقٌ^(١) أَوْ ضَجْرٌ أَوْ مَلَلٌ أَوْ حَرْجٌ أَوْ كَلَالٌ بَلْ يَنْتَظِرُ بَيْنَ الْخُصُومِ وَقَدْ سَدَ خَصَاصَتَهُ^(٢) وَقَضَى عَامَةَ إِرْبَهِ^(٣) وَخَاصَّتَهُ وَاسْتَظَهَرَ بِمَلْكِ نَفْسِهِ وَإِرْبَهِ وَعَرَكَ السَّاخِطَ وَالْمَنَاعِيظَ بِجَنْبِهِ يَؤْدِي فِرْضَ اللَّهِ فِي عَظِيمِ مَا تَطْعُونَهُ مِنَ الْفَرْوَجِ وَالدَّمَاءِ

(١) الحنق: الغيط.

(٢) الخصاصمة: الفقر.

(٣) الأدب، بكسر فسكون هنا العقل.

ويحذى أمر الله في جسم ما اعتقده من حقوق الدهماء^(١) فإن الله سائله يوم تشهد الأشهاد ويحشر العباد عن قليل ذلك وكثيره ومحاسبة على صغير ذلك وكبیره ولا يعزب عنه مثقال ذرة في السموات ولا في الأرض ولا أصغر من ذلك ولا أكبر إلا في كتاب مبين».

(٨) العدل بين الخصوم:

«وأمره بأن يعدل بين الخصوم في مجالس قضائه ويعلمهم بحسن استماعه واصفائه ولا يجعل من قد غشته هيبة الحكم فيحصر^(٢) ويخرج ولا من ملكته روعة الخصم فيحصر^(٣) ويتلجلج ولا يقسم لواحد منها في لفظه اذا لفظ ولحظه إذا لحظ إلا مثل الذي يقسمه لصاحبه ويوجه لمنازعه ومجاذبه للا يطمع قوي في الظلام ضعيف أو يجزع مشرف من اهتضام شريف^(٤) فالحق أكبر من كل ذي سحل وثورة والدين أعظم من كل ذي منزلة وحظوة ولله على كل قاض فيما يخفيه فيعلمه أو يديه فيعلمه رقيب لا تلحقه غفلة وحسيب لا نفوته خصلة ~~هـ~~ ما يلطف من قول إلا لدبه رقيب عتيد~~هـ~~».

(١) الدهماء عامة الناس.

(٢) الحصر: العي والعجز عن الكلام.

(٣) يحصر بعجز.

(٤) مأخذة من رسالة عمر بن الخطاب إلى أبي موسى الأشعري في القضاء من قوله «أَنْ بَنَ النَّاسَ فِي وِجْهِكَ وَعَدْلُكَ وَمَجْلِسَكَ حَتَّى لَا يَطْمَعَ شَرِيفٌ فِي حِيفَكَ وَلَا يَأْسَ ضَعِيفٌ مِنْ عَدْلِكَ».

(٩) اختيار الاعوان:

«وأمره أن يتخير كفاته وخلفاءه وكتابه وأمناءه فمن نصح وعف وصلح
وكف أقره وفسح له ممه ومن صدف عن التورع والظللف^(١) وانحرف إلى
الجشوع والنطلف^(٢) قدم عزله وحسم عن المسلمين كله^(٣) فالمرء مسؤول
عن بطالته كما هو مسؤول عن أمانته **فِي يَوْمِ تَوْفِي** كل نفس ما كسبت وهو
لا يظلمون^(٤).

(١٠) الفحص عن الشهود:

وأمره بأن يتصرف الشهود لتصفح من عدالة المسلمين أثر إلهي من الجرح وسلامتهم في الدين أوقع لديه من القدر فالMuslimون بظواهرهم عدول إلا من ثبت منه فسوق أو غلول^(٤) وأن يخبر أحوالهم بعد ألا يقبل ظننياً^(٥) ولا عبداً ولا من أقام عليه القذف حداً ويستشفهم فيما يصدرون وينوردون ويتحملون ثلثاً يقدم أحدهم في شهادته على لبس أو يهجم به ضعف درايته على زيادة أو نقص مما كل الشهود يؤتى من سوء السريرة وإنما يؤتون من سوء المعرفة وال بصيرة ولذلك فضل من فضله علمه وقدم من قدمه فهمه هل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون^(٦)؟

(١) الظلف الخشونة والمراد: الزهد.

(٢) النعف الشر والفساد والعيوب.

(٣) الـكـاـ . بالفتح . المصـيـةـ.

(٤) الغلول، الخيانة.

(٥) الغطين: المتهج.

(١١) أموال اليتامي:

وأمره بأن يحتاط على مال اليتيم بالاحتياط الشديد فلا يعول في حفظه إلا على الأمين السديد ويركز كل به عيناً من ملاحظته وسيراً من حفظه ومحافظته ليؤمن فيه الأكل بالباطل والتعریض لخبت المطاعم والماكل ولینتفق منه عليه إنفاقاً وسطأً في التقدير بين التبذير والتقتير إلى أن يصلح الحلم والنکاح ويستكمل الرشد والصلاح فيحصل ماله في يديه ويشهد به عليه **﴿وَابتلو اليتامي حتى إذا بلغوا النکاح فإن آنستم منهم رشدًا فادفعوا إليهم أموالهم ولا تأكلوها إسرافاً وبداراً أن يكروا ومن كان غنياً فليستعفف ومن كان فقيراً فليأكل بالمعروف فإذا دفعتم إليهم أموالهم فاشهدوا عليهم وكفى بالله حسيباً﴾**.

(١٢) المواريث:

وأمره بأن يضع المواريث إذا رفعت إليه مواضعها من الاستحقاق والاستحباب ويوصلها إلى أربابها بالأنساب والأسباب على فرائض الله فيما سمي وأسمهم وأبقى بعد ما قسم وأن يجري ذوي الأرحام على ما رأه أكثر الأمة وقال به جمهور الأئمة من إيجاب التوريث عند فقد ذوي التعصيب فلو لم يكن في ذلك إلا حراسة التراث عن معارضته عمال المعاون^(١) والأحداث لوجب تغليب من هذه فتياة وأحقن فيها غرضه ومرماه فكيف وقد نلی في نص كلام الله **﴿وَأولو الأرحام بعضهم أولي بعض في كتاب الله﴾**.

(١) المعاون: الشرطة.

(١٣) الرجوع الى الحق:

وأمره لا ينسخ حكم القضاة قبله إذا كان مما يسغى الرأي مثله فلو نقض الاجتهد بالاجتهد لما استقرت أحكام قضاة البلاد. وإن هو وجد من ذلك ما خالف إجماع الحجة، وخرج عن اتفاق الأمة أتى فيه ما يلزم تلافيه فالباطل أولى بأن يدفع والحق أحق أن يتبع.

(١٤) زواج الأيماني:

وأمره بتزويج الأيماني^(١) الالاتي ولا ينهى إليه وعقدتهن بيديه متخير الأكفاء وطالباً في الصدقات^(٢) الوفاء عالماً بأن تقديم ذلك أدعى إلى العفاف وأرجى للكافف في وأقرب إلى العدل وأبعد من العضل^(٣) وقد قال الحكيم الرحيم في القرآن العظيم « وأنكحوا الأيماني منكم والصالحين من عبادكم ودمائكم ان يكونوا فقراء يغفهم الله من فضله والله واسع عليهم».

(١٥) رعاية الأوقاف:

وأمره بأن ينصب للوقوف من يحسن وقوفه عليها وقيامه وبصدق اشتغاله بها واهتمامه للا تبور أصولها بالضياع أن تفرق حقوقها باقتطاع ولتجري أقسامها على ذللها وتصرف في وجوهها وسبلها وتحمى عن

(١) الأيماني الذين لا أزواج لهم من الرجال والنساء الواحد منها (أيم) سواء كان تزوج من قبل أو لم يتزوج، وامرأة أيم يكرأ كانت أو بنيان.

(٢) الصدقات جمع صدقة . يفتح فضم الصداق . يفتح الصاد وكسرها . مهر المرأة.

(٣) العضل، المنع من التزويج.

مكائد من يسمى في نقضها برأي من آراء المجتهدين ويتأنى لحلها بفتوى من فتاوى المختلفين **فمن** بدله بعدما سمعه **فإنما إثره على الذين ييدلونه**.

(١٦) انتظار المعسرين:

وأمره إذا ثبت عنده الاعسار أن ينظر ويهلل ويؤخر ويؤجل فإن الله فرق بين ذي المترتبة^(١) والمقدرة، فقال **ولأن** كان ذو عشرة منظرة إلى ميسرة^(٢).

(١٧) ضرب السكك (العملة):

وأمره بأن ينصب لحفظ السكك في دور الضرب أمناء يحرسون العيار، ويعرفون السبك والاعتبار ليكون ما يطبع على الإمام^(٣) المعلوم والمثال المرسوم فلا يستطيع من أراد دغلاً^(٤) أن يقع خللاً فتجري المعاملات على السداد وتحفظ التفود عن الفساد **والله خير حافظ وهو أرحم الراحمين**.

(١٨) درء الحدود بالشبهات:

وأمره إذا رفع إليه ما يوجب حداً أو قطعاً أو قللاً أو جلداً أن يأخذ بأبعد المذاهب من اباحة ظهر المسلم فإنه الحمى وإرقة دمه فإنه حرمة

(١) المترتبة: السكك والفالقة، ومسكين ذو مترتبة أي لا صق بالتراب.

(٢) المقصود بالأمام المعلوم التزرج الذي يضرب التفود على مثاله.

(٣) الدغل . بفتحين . الفساد مثل الدخل.

العظيمى وإبانة أعضائه فالأصل الحظر ولا اطلاق ما استعجم الأمر وإن
يجرد عند ذلك المسألة عن البينات ويأخذ بالسنة في درء الحدود
بالشبهات فإن وضع له ما يوجب اقامة الحد أنهاء ونفيه بحكم الله ولم
تأخذه رأفة في دين الله.

هذا عهداً إليك وعد الله به عليك لم تألك فيه تذكيراً وإن كنت به
 بصيراً ولم تذر عنك بياناً وإن كنت تقتله علمًا وليقافاً. فاستخر الله
 المغيث بلغك سدداً و يؤتك ما بقيت رشدًا إليه تفوينا فيما نبديه و نعيد
 وعليه تعويلاً فيما نزعم و نزيد وهو حسبنا ونعم الوكيل».

تلك صورة تخيرناها من المعهد المستفيضة التي كتبها الصاحب وإذا
صرفنا النظر عن صياغتها الفائقة وأسلوبها الممتاز فإننا نجد فيها دقة
وأحكامًا لما تضمنته من الأوامر والتوجيهات والآحكام التي تتصل بمصالح
الرعاية وتدل على معرفة الصاحب وفقهه فقد ذكر فيها أصول التشريع
ومصادر الأحكام وهي: كتاب الله تعالى وسنة رسوله ﷺ وإجماع
المسلمين والاجماد والقياس فيما لا نص عليه من كتاب أو سنة أو إجماع
على مثله مما له نص من الكتاب والسنة والاجماع. كما ذكر ضرورة
الشورى فيما يحتاج إليها وحذر من الاستبداد واطاعة الهوى ونبه القاضي
إلى رياضة نفسه وتهذيبها والعدل بين الخصوم والعنابة بتخير أدعوناه وأبنائنا
والقبح عن الشهود والاستئناق من عدالهم ورعاية اليتامي واتباع أحكام
المواريث وعدم تقضي الأحكام إلا إذا ثبت خطؤها وتزوير الأيمان ورعاية

الاوقاف والتخفيض على المعاشرين ودرء الحدود بالشبهات وكلها تتصل بأعمال القاضي وما ينظر فيه.

وهذا العهد كما رأينا طابعه الإيجاز وإن بدا طويلاً فلكلثرة ما عرض له من الواجبات كما رأينا استشهاده في أكثر مسائله بآيات من كتاب الله يدعم بها أوامره ويؤيد بها نصيحته وما أجر الأدباء بهذه الثقافة التي تعرفهم مناهج الحق وما أجر من يتولون الفصل بين الناس بتذير أمثال هذا العهد الفريد.

وإنك لنقرأ كثيراً من أمثال هذا الأدب العالي والنمط الفريد في مجموعة رسائله التي كتبها في أغراض مختلفة وكلها تشهد بالأصالة والقدرة على الإبداع^(١).

فقرات من كلامه تجري مجرى الأمثال . توقيعاته:

وللصاحب غرر من فقر ألفاظ تجري مجرى الأمثال. منها ما أخرج الأمير أبو الفضل عبيد الله بن أحمد في كتابه الذي سماه «ملح الخواطر وسبع الجوامر» ومنها مما أخرجه الشعاليبي.

من استباح البحر الغرب استخرج اللؤلؤ الربط. من طالت يده بالمواهب امتدت إليه ألسنة المطالب. من كفر النعم استوجب النعمة.

(١) طبعت هذه الرسائل في مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر القاهرة ١٩٤٧ وصحبها وقدم لها المرحوم الدكتور عبد الوهاب عزام والدكتور شوقي ضيف.

من نبت لحمه على الحرام لم يحصده غير الحسام. من غرته أيام
السلامة حدثه ألسن الندامة. رب لطائف أقوال توب عن وظائف أموال.
الصدر يطفع بما جمعه وكل إناء مؤبد ما أودعه. الشمس قد تغيب ثم تشرق
والروض قد يذهب ثم يورق. العلم بالذكر والجهل بالتناكر.

الضمائر الصحاح أبلغ من الألسنة الفصاح. الآمال ممدودة والعواري
مردودة.

متن السيف لين ولكن حده خشن ومن الحية ألين وناهاها أخشن.
بعض الحلم مزلة. وبعض الاستفامة مزلة. قد ينبع الكلب القمر، فليقلم
الناب العجر.

ربما كان الإقرار بالقصور أنطق من لسان الشكور. ربما كان الإمساك
عن الإطالة أوضح في الإبانة والدلالة.

تلقي الإحسان بالجحود تعریض النعم للشروع. ما كل طالب حق
يعطاه ولا كل شائم مزن يسقاهم ان الأحداث لا رياضة لهم بتدبر
الحوادث. من ثقلت عليه النعمة خف وزنه ومن استمرت به الغرة طال
حزنه.

وللصاحب من التوقعات . وهي التعليقات الموجزة الحكيمه التي
اشتهر بها بعض الخلفاء والوزراء والكتاب — التي كان يكتبها عفو
الخاطر تعليقاً على بعض ما كان يرفع إليه ما يشهد على علو كعبه في
البلاغة وبعضها كان يقتبسه من كتاب الله ومنها:

- (١) كتب إنسان رقعة وقد أغار فيها على رسائله وسرق جملة من ألفاظه فوقع الصاحب فيها «هذه بضاعتنا ردت إلينا».
- (٢) ووقع في رقعة استحسنها **﴿أَفْسِرْتُ هَذَا أَمْ أَنْتَ لَا تَبْصِرُونَ﴾**.
- (٣) ووقع في رقعة أبي محمد الخازن وكان ذهب مغاضباً كتب إليه يستأذنه في مهاودة حضرته **﴿أَلَمْ نَرْبَكْ فَهَا وَلَيْدَا وَلَبَثْ فَيْنَا مِنْ عُمرَكَ سَنِينْ وَفَعَلْتَ فَعْلَتْكَ الَّتِي فَعَلْتَ﴾**؟
- (٤) وكتب بعض العمال رقعة إلى الصاحب في التماس شغل وفي الرقعة «إن رأى مولانا أن يأمر بإشغاللي ببعض أشغاله. فوقع الصاحب تحتها، من كتب اشغاللي لا يصلح لأنشغاللي!»
- (٥) ورفع الضرايبون من دار الضرب قصة إلى الصاحب في ظلامة لهم مترجمة بالضرايبن فوقع تحتها «في حديد بارد».
- (٦) ووقع على رقعة لأبي الحسن الشقيري البلخي «من نظر لدينه نظرنا للدنياه فإن آثرت العدل والتوجه بسطعنا لك الفضل والتمهيد وإن أقمت على الجبر فليس لكسرك من جير».
- (٧) ورفع إليه بعض منسي الأخبار أن رجلاً من بنطوي على غير الجميل يدخل داره في الناس ثم يتلوم على استراق السمع. فوقع «دارنا هذه خان يدخلها من وفي ومن خان».
- (٨) وكان مكي المنشد قد انتاب الصاحب بجرجان وكان قد تم الخدمة له فأساء أدبه غير مرة فأمر الصاحب بحبسه فحبس في دار الضرب

وهي بجواره بجرحان فاتفق أنه صعد يوماً سطح داره لحاجة في نفسه وأشرف على دار الضرب فلما رأه مكي نادى بأعلى صوته «فاطلع فرأه في سوء الجحيم» فضحك الصاحب وقال «أحسؤوا فيها ولا تكلمونها» ثم أمر بإطلاقه. وهذا الخبر وإن لم يكن من التوقعات المكتوبة إلا أن له ما للتوقع المكتوب من حضور الذهن وسرعة الجواب!

٥٣ - طبيعة شعر الصاحب:

والتأمل فيما أثر الصاحب في فن الشعر بهدي إلى أن السمة المميزة له والغالبة عليه هي سمة الترف وترى هذه السمة واضحة في الفنون والمواضيعات التي عالجها كما تراها في الأخيلة والمعانى التي صورها وفي الألفاظ التي تخيرها والتركيب التي ألفها.

ويتجلى كل ذلك في وصف متع الحياة وبما يحيى النفس التي كانت تنعم بها تلك الطبقة من حكام ذلك الزمان الذين كانوا يسكنون شامخ الأنس والطرب ويملكون أسباب الترغيب والترهيب ويقدرون على الإبعاد والتقرير والوصول والجفاء.

فشعر الصاحب في جملته يمثل في فنونه ومعانيه شعر الكرباء أو شعر الكرباء الذي قد يسمى شعر الخاصة ولكنها ليست خاصة الفن التي كثيراً ما تكون فيتناول الطبقات المتفاوتة في المجتمع وإنما هي خاصة الحياة وخاصة المنصب والجاه.

وإذا ما حاولنا أن نلتئم للصاحب شيئاً في فنه فإننا نجد هذا الشبيه

في عبد الله بن المعتز، صاحب ابن الرومي في وجه من أنشده بعض شعره «ويحك» إنما يصف هذا ماعون بيته.

ولو خلي بين الصاحب وبين شاعرته حتى تصل إلى مداها و تستوفى غايتها وتتبرأ بمحنونها لكان إلى الشريف الرضي أقرب ولكان فنه بفن الشريف أشبه. ولكن الوقت والفراغ كانوا في يد الشريف بقدر ما كان الصاحب في يد الدولة وفي حزة المنصب.

كانت جل الأغراض التي عالجها الصاحب في شعره تدور حول تلك الحياة الخصبة التي كان يحياها وتصف ألوان المتعة التي كان يجدوها في الطبيعة أو في الحياة والأحياء وهي متعة لم تكن مستعصية عليه بل كانت طوع يمينه وبين يديه ولكنها النفس التي كانت تطلب من هذه المتعة المزيد. وأكثر هذا الشعر بصور الرجل المقصود الذي تتطلع إليه الآمال ولم يكن يصور الرجل المتعلق إلى الآمال فقد بلغ غايتها الرفيعة كما يصور الرجل المتفضل الذي يوجد بهاته كما يوجد بأدبه ويؤدب بهذا الأدب كما يؤدب بالحرمان من عطائه العال.

ولكل هذا نرى أن المدح في شعر الصاحب قليل ولا يتوجه فيه إلا إلى أولياء نعمته وهم قليل.. ومنه قوله في عضد الدولة:

همام رأى الدنيا سواماً فحاطها
لبالي في غير الزمان وقرر
فموقعها من راحتيه يسر
ولم يخطب الدنيا احتفالاً بقدرها
ورأى بأبناء الرجال بصير
ولكن له طبع إلى الخير سابق
فذلك أمر لا تزال تمر
وإن لم يلاحظهم بعين حمية

وقوله في عضد الدولة من قصيدة أخرى:

ولا تتأني في حساب المنجم
على حين صاروا كالهشيم المخطم
مقال النصارى في المسيح ابن مرريم
لما أبصرت عيناك وجهه مذموم
لما سمعت أذناك ذكر ملوم
لغيرك لم أخرج ولم أنائم

سعود يحار المشتري في طريقها
وكم عالم أحبيت من بعد عالم
فوالله لولا الله قال لك الورى
محامد لو فضت ففاقت على الورى
وكلا ولكن لو حظوا بزكاتها
ولو قلت إن الله لم يخلق الورى

وقوله:

قىسمان بين رجائه وحذاره
ومراهن قد جال قدم بواره
وتقول قولًا نبت في إخباره
فاكون بعض بلاده ودياره

يا أبها الملك الذي كل الورى
فمناصع قد فاز سهم طلابه
هذا بخارى تشتكى ألم الصدى
ماذا عليه لو يهم بعرصة

وكتب إلى مؤيد الدولة أبي منصور:

يحوزها المولى الهمام المعتمد
وابن أخي معزها أخو العضد

سعادة ما نالها فقط واحد
مؤيد الدولة وابن ركنها

وقال في فخر الدولة لما بنى قصره بجرجان:

ممك والفرقد سيان
تاجاً على مفرق بل صفتة

يا بانياً للقصر بل للعلا
لم تبن هذا القصر بل صفتة

وقصرك المبني من قبله ملوكه والله هو الباقي
فأقبل نثار العبد بل نظمه فإنه والدر مثلان

وهذا الشعر كما نرى وإن كان في المدح إلا أنها نرى الصاحب من
خلاله لا يزال متماسكاً فلا نقرأ فيه ذلة الخضوع والضراوة التي نقرؤها
في أكثر ما نقرأ من شعر المدح للمنتسبين من الشعراء الذين كانوا
ينسون أنفسهم بل يهبطون بها إلى حضيض الاستعطاف والمذلة
والإسفاف وأولئك الثلاثة كما رأينا من أبناء بويه وهم أولياء نعمته الذين
احتضنوه وارتقا به في دولتهم إلى منصب الوزارة.

ولا يخدعنا عن هذه الحقيقة ما في هذا الشعر من المبالغات التي
نأياها ونرفضها، فإنها من أقوال الشعراء ولا تظهر فيها شخصية الصاحب
التي تلخصها به وتجعلها علمًا عليه. هل إن من المستطاع أن تنسى إلى
غيره من شعراء المبالغات كما ينسب إليه في ذلك العصر
الذي نأت الحياة فيه عن مظاهر البساطة وجمنت في المعانى إلى الغلو
الذى يشين والذى يقرب من الكذب، هل قد يصل فى بعض الأحيان إلى
درجة الكفر.

ومن الذين مدحهم من أصحاب الفضل عليه أبو الفضل بن العميد وهو
أستاذه ومدربه ومن قوله فيه يذكر نفراً أصحاب يمناه:

أبو الفضل من أجرى إلى الفضل باقعاً فضل به يدعى وصار به يمكن
سلامته شمس المعالي وسقمه كسوف المعالي لا كسفن ولا بنا
ولم يأنه ورد السقام لغير ما عرفنا فخذ معنى تألمه مما

وما راده إلا ليشغل عن ندى
ولا فلم قد خص بالألم اليمني
وما يحجز البحر الخضم عن الندى
ولا السيد الأستاذ عن جوده يثنى

وهي كلمة وفاء كان جديراً أن يكتبها لأستاذه في علته وقد ظهر فيها ذلك المعنى البكر الذي أحسن فيه التعليل وادعى فيه أن العلة إنما لزمت بهذه اليمني لتكتفه عن نداء المسرف ولكن هيئات أن تثنيه عما طبع عليه كالبحر لا يستطيع أن يكتفه أحد عن العطاء!

أما الإخوانيات فإن للصاحب المقام الأول في صياغتها ونکاد تسيل رقة لفروط ما حملته من ألوان الصفاء في معانيها وفي لغتها التي لا تجد فيها كلمة نابية أو لفظاً مستكراً وإنما هي أشبة شيء بالتمير الصافي الذي لا يكدره تصنع ولا تعمل ولا إكراه بل هو يجري فيها على سجدة رفيفة وطبع سلسلال لا يتحجر ولا يتعرّض فهو إذا تحدث إلى صاحبه في مداعبة أو عتاب فكأنه يتحدث عن نفسه أو كأنه يتحدث نفسه لفروط ما أصفى من الود وما بذل من صفاء الروح. وتتجدد مثلاً لهذه الشاعرية الملائكة بالورد المترعة بالصفاء في مثل ما كتب إلى أبي الفضل بن شعيب:

يا أبو الفضل لم تأخرت عنا فأسأنا بحسن عهدهم ظنا
كم قمت نفسى صديقاً صدوقاً فإذا أنت ذلك المتنمى
فيغضن الشباب لما نشنى وبعهد الصبا وإن بان مما
كن جوابى إذا قرأت كتابى لا تقل للرسول كان وكنا

وفي مثل ما كتب إلى أبي بكر الخوارزمي:
أشهدك الله بيموم الفصح وعشت ما شئت ببيوم سمح

بأ رأس مالي في الورى وربحي وظفرني ونصرتي ونجحي
شرباً ولا نصح لأهل النصح فالحزم أن تسكر قبل تصحي
سكر النصارى في غدأة الفصح

رأيت إلى الصاحب كيف يجيء هذا الصديق الأديب، وكيف يتبسيط
معه في الحديث ويتلطف معه في الخطاب وكيف بهذه رأس ماله وربحه
وظفريه ونصرته ونجاحه؟ ثم انظر الجزاء الذي يلقاه به الخوارزمي وقد نال
من بره وتقربيه الكثير، في مثل قوله:

لأنحمدن ابن عباد وان هطلت كفاه يوماً ولا تذممه ان حرما
فيإنها خطرات من وساوسه يعطي ويمتع لا بخللاً ولا كرما

ماذا كان يريد أولئك الأصفياء من ذلك الرجل الذي قربهم وأفاض
عليهم من أدهنه وماله وقلبه ما كان يستطيع؟ لعلهم كانوا لا يقنعون إلا بأن
يصبوا أموال الدولة وأمواله في جيوبهم أو ينزل لهم عن منصبه ليختلفوه فيما

ما هذا الجحود الغريب الذي يبني الكرام عن المكارم ويتزع من القلوب
الثقة بين هم أحق الناس بالثقة من ينتسبون إلى العلم أو إلى الفن إن مثل
هذا الجحود لسبب من أعظم الاسباب في تزهيد الفضلاء في الفضل
وترغيب الكرام عن المكارم وما أصدق الذي قال: والكافر مخبطة لنفس
النعم: وما أحق الصاحب أن يقول عندما بلغه خبر وفاة أبيه بكر الخوارزمي:

أقول لركب من خراسان رائع : أمات خوارزميكم؟ قيل لي: نعم
فقلت: أكتبوا بالجص من فوق قبره ألا لعن الرحمن من كفر النعم!

وَهُمَا بَيْتَانٌ يَشْعُرُانِ بِمَا كَانَ يَجْدِه الصَّاحِبُ مِنْ مَرَاثِهِ الْجَمِودِ مِنْ
أَحْسَنِ لِيْلَاهُمْ وَأَحْسَنِ بَهْمِ الظُّنُونِ وَمِنْ إِخْوَانِيَّاتِ الصَّاحِبِ الرِّقِيقَةِ الرَّائِفَةِ مَا
كَبَهُ إِلَى صَاحِبِهِ أَبِي القَاسِمِ الْفَاشَانِيِّ :

يَا أَبَا الْقَاسِمِ قُلْ لِي قُلْ لِمَاذَا لَا تَزُورُ
كُنْتَ قَدْ قَدِمْتَ وَعِدَّاً فَمَاذَا وَعَدْكَ زُورُ
وَبَرَزَتِ الْوَدَّ بِالْفَوْ لَفَلِمَ تَرْزَكِ الْبَذُورُ
وَنَحَرَتِ الْوَدَّ بِالْهَجَّ رَكَمَا يَهْدِي الْجَزُورُ
إِنْ أَمْ الْمُصْدَقَ فِي الـ سُودَ لِمَفْلَةِ نَزُورِ

وَفِي هَذَا الْعَتْبِ الْمُتَبَسِّطِ الَّذِي كَبَهَ إِلَيْهِ :

سُولَيْلَمْ تَدْعُ عَبـ مَوْلَايِ لَمْ تَدْعُ عَبـ
أَعْرَفْتَهُ مِنْ بَيْنِهِمْ أَعْرَفْتَهُ مِنْ بَيْنِهِمْ
أَمْ قَمِيلْ عَرِيدْ ذَاتِ مَوـ أَمْ قَمِيلْ عَرِيدْ ذَاتِ مَوـ
أَمْ لَمْ يَسْاعِدْ حِينَ مـ أَمْ لَمْ يَسْاعِدْ حِينَ مـ
إِنْ كَنْتَ تَبْخَلُ بِالْطَّعَـ إِنْ كَنْتَ تَبْخَلُ بِالْطَّعَـ
لِسَانَ حَاوِلَ دُعَـ لِسَانَ حَاوِلَ دُعَـ

وَحَدَثَ الشَّعَالِيُّ عَنْ أَبِي نَصْرِ التَّهَذِيْبِ قَالَ: سَمِعَ الْقَاضِيُّ أَبَا الْحَسَنِ
ابْنِ عَبْدِ الْعَزِيزِ الْجَرْجَانِيَّ يَقُولُ انْصَرَفَتْ يَوْمًا مِنْ دَارِ الصَّاحِبِ وَذَلِكَ قَبْلَ
الْعِيدِ فَجَاءَنِي رَسُولُهُ بِعَطْرِ الْفَطَرِ وَمَعَهُ رِقْعَةً بِخَطِّهِ فِيهَا هَذَا الْبَيْتَانَ:
يَا أَبِي الْقَاضِيِّ الَّذِي نَفْسِي لَهُ مَعَ قَرْبِ عَهْدِ لِقَائِهِ مُشْتَاقَهُ
أَهْدَيْتُ عَطْرًا مِثْلَ طَبِيبِ ثَنَاهُ فَكَائِنًا أَهْدِيَ لَهُ أَخْلَافَهُ

قال: وسمعته يقول: ان الصاحب يقسم لى من اقباله واكرامه بجرجان
أكثر مما يتلقاني به في سائر البلاد وقد استغفيفه يوماً من فرط تحفته بي
وتواضعه لي فأنسدني:

أكرم أخاك بأرض مولده وأعزه ما نيل في الوطن
فالعز مطلوب وملتبس وأمده من فعلك الحسن

ثم قال: قد فرغت من هذا المعنى في العينيه فقلت لعل مولانا يزيد
قولي:

وشيدت مجدي بين قومي فلم أقل ألا لبت قومي يعلمون صنيعي
فقال: ما أردت غيره والأصل فيه قوله «باليت قومي يعلمون بما غفر لي
ربني وجعلني من المكرمين»

فهذا كلام من يعرف الفضل لأصحابه ومن ينصف الصديق ومن يعرف
أثر تكريمه في وطنه وبين أهله وعشيرته وهو أثر بعيد لا يدركه إلا عالم
بأسرار النقوس من أمثال الصاحب في فطنته وبعد نظره وطهارة قلبه.

أما الوصف فقد كان الصاحب فيه من أعلام المبرزين وأوصافه تزخر
بالتصوير الرائع وتفيض بالتشبيهات البارعة وأكثر في مباحث الطبيعة وفي
الازهار والشمار وفي الخرييات وهو صاحب البيتين المشهورين اللذين هام
بهمما البلاغيون:

رق الزجاج ورقة الخمر فتشابها فتشاكل الامر
فكأنما خمر ولا قدح وكأنما قدح ولا خمر

ومن خمرهاه:

فقلت للنديمان عند شمها
فحسبها ما شربت من كرمها

وشهوة قد حضرت بختها
لا تقبضن بالماء روح جسمها

وقوله:

متناكل أشباحها أرواح
فالراح والمصباح والتفاح
من أي مذى تملاً الأقداح

متغایرات قد جمعن وكلها
إذا أردت مصرحاً تفسيرها
لو يعلم الساقي وقد جمعن لي

وقوله:

دعوت بكأس وهي ملأى من الشفق
حدود عذاري قد جعلن على طبق

ولما بدا التفاح أحمر مشرقاً
وقلت لساقيهما: أدرها فانها

ومن أبدع ما قال فيها من قصيدة:

أمل لحدود الغانيات عصير
وقد يطرب الانسان وهو كبير

وكأس نقول العين عند جلاتها
تحاميتها الا تعجل واصف

وقوله في جلوسه مع الشرب من غير شرب.

تنبع ندمان بها وأحبة
بحغير بدئ وارضي بما قاله فمي

وتحظى منها أن أقول ألا انعنى
للك الوصف دون القصف مني فخيمي

ومن ملح أوصافه وتشبيهاته:

ولشرب الشميم فانبسط بسرور

أقبل الشميم الكبير بعد الصغير

أقبل الجو في غلائل نور
فكان السماء صاحرت الأرض

وقال في النارنج:

فقبل على الأغصان منه نوافع^(١)
وأيدي الندامى حولهن صوالح^(٢)

بعثنا من النارنج ما طاب عرفه
كرات من العقيان أحكم فرطها

وقال في الند^(٣):

قد زاد عرفاً من نسيم بديه
وكأنه طيب الثناء عليه

ند لفخر الدولة استعماله
فكأنما عجنه من أخلاقه

وقال في حبة عنب:

من الممنى متخلنه
في وسطهما زمرده

وحبة من عنب
كأنها لؤلؤة

وقال فيها أيضاً:

تحسدها العقود في الترائب
لؤلؤة قد ثقت من جانب

وحبة من عنب قطفتها
كأنها من بعد تبizeri لها

(١) النوافع: جمع نافعة هو وعاء المسك (مغرب).

(٢) العقان: الذهب الخالص.

(٣) الند: بفتح النون وكسرها، طيب أو هو العنبر.

وقال في التين:

متخير في وصفه يتحير
و甄ى النخيل لديه مرّ مفتر
قطع النضار أدارهنّ مدور
الله اكبير والخليفة جعفر

نین بیزین رواژه مخبره
عمل اللعاب لدیه مسا بجتوی
وکاناهو فی ذرا أغصانه
ویقول ذاته لطیب مذاقه

ومن فوله يصف الشم:

يجمع أوصاف كل حب
وذوب جسم وحر قلب

ورائق القد مستحب
صفرة لون وسکب دمع

وقال في الخط واللفظ:

من حلة هو أم ألبته حلا؟
أم قد صبيت على أفواهنا عسلا؟

بالله قل لي أفترطاس تخط به
بالله لفظك هذا سال من عمل

ومن ملء شعره في الغزل:

قد ظلم الصب وما أنصفه
نيمني، يا لبت كفي شفه

وشنادن أصبح فوق الصفة
كم قلت اذ قبل كفى وقد

وقوله:

فهم ليل وانت أخو الصباح

سحب ما أردت على الصباح

لقد أولاك ربيك كل حسن
وبعد فليس بحضرمني شراب
وليس لدى نقل فارتهنني

وقال من باب الاقتباس من الحديث الشريف:

ومهفهف يغنى عن القمر
خالسته نفاح وجنته
فأخافني قوم فقلت لهم
لقطع في ثمر ولا كثرة^(٤)

ومن بدیع غزله:

فقلت ماذا دهاك ياقمر؟	أناي البدر باكبأ عجلأ
بحسنـه فالـفؤاد منـفطرـ	فالـغـزال أـتـي لـيـعـزـلـني
واسـجـدـ لـه قـالـ كـلـ ذـا غـرـرـ	فـقـلتـ قـبـلـ تـرـابـه عـجلـأ
فلـبـسـ لـي مـفـزعـ وـلـا وزـرـ	قـدـ بـايـعـتـ أـنـجـمـ السـماءـ لـه

وقال متغلاً:

بـدا لـنا كـالبـدر فـي شـروـقـه
يـا عـجـبا وـالـدـهـرـ فـي طـرـوـقـه
يـشـكـو غـزـلـا لـعـ فـي عـقـوقـه
مـن عـاشـقـ أـحـسـنـ مـن مـعـشـوقـه

قال أبو بكر الخوارزمي: أنشدني الصاحب هذه القوافي ليلة وقال: هل

(١) امرأة مهففة: ضامرة البطن.

تعرفون نظيرًا لمعناها في شعر المحدثين؟

فقلت: لا أعرف إلا قول البحري:

ومن عجب الدهر أن الأمي رأصبع أكتب من كاتبه

فقال الصاحب: جودت وأحسنت وهكذا فليكن الحفظ وللصاحب
في شعر المجون باع طويلاً يقصر عن المفلقون المجددون وكان مبعث
ذلك روح النقد التي تمكنت منه فبرع في رسم صور خلابة تشيع فيها
روح السخرية من سلط عليهم شاعريه المبدعة ولو هجاء لاذع يقصر
عنه الهجاوة الذين تخصصوا في النيل من الأعراض ومن قوله في قاضٍ
لم يثبت عنده هلال شوال:

ان قاضينا لأعمى أم على عمد تعامى؟
سرق العمد كأنـ الـ ميد من مال الـ بـ تـ اـ مـ اـ ؟

وقوله فيه:

با قاضـ بـ اـ بـ اـتـ اـ عـ اـ مـ اـ عنـ الـ هـ لـ الـ سـ عـ اـ بـ دـ اـ فـ طـ رـ فـ يـ رـ مـ ضـ اـ نـ

وأنشد له الأمير أبو الفضل عبد الله بن أحمد المبكالي:

نبـتـ أـنـكـ منـشـدـ ماـ قـلـتـهـ فـيـ سـبـ عـرـضـكـ لـاـ تـخـافـ وـعـيـديـ والـكـلـبـ لـاـ يـخـزـىـ إـذـاـ أـخـسـأـهـ

وأنشد له غيره:

نزلت الأرض زلزالها ف قالوا بأجمعهم ما لها
مشى ذا الثقيل على ظهرها ف أخرجت الأرض أثقالها

ولو ذهنا تخير للصاحب رواي شعره في سائر الفنون التي أجاد فيها
الصاحب وأبدع ثم شرحنا أسباب الإجاد وظاهر الإبداع لاسع مجال
القول وضاقت عنه هذه الصفحات ولكن نجزئ^١ بهذه الأمثال التي
يمكن القاريء أن يستشف من خلال طبيعة شعر الصاحب وما أتيح له
من ملحة بارعة وقدرة فائقة على التحليق في سماء هذا الفن الرفيع ونختم
هذه الرواية بقوله:

وقائلة لم عرتك الهموم وأمرك ممثل في الأسى
فقلت دعني على غصتي فان الهموم يقدر الهمم

ولا يتسرّب إلينا شك في أن أي ناظر إلى هذا الشعر سيفعل منه موقع
القبول وأنه سيجد فيه من القوة ما يرفعه إلى درجة الفحول المطبوعين،
ولكن أيا خيان التوحيد وقد عرفنا من عداوته للصاحب ما عرفنا وعرفنا
ولوعه بثليبه وانتقامه لما قدمنا من الأسباب يذكر جملة من الآراء تسامر
رأيه في الصاحب وينسبها إلى غيره من الناس والله أعلم بصحة ذلك فقد
سأله الوزير أبو عبدالله العارضي: كيف بلاغة الصاحب من بلاغة ابن
العميد؟ وأين طريقة ابن يوسف والصابي؟ وأراد أبو حيان أن
ينسب ما أراد من قدح في الصاحب إلى غيره فقال. قد سألت جماعة عن
هذا فأجابني كل واحد بجواب إذا حكى عنه كان ما يقال فيه أصدق

و كنت من الحكم عليه وله أبعد!

سألت ابن عبيد الكاتب عن ابن عباد في كتابته فقال يرتفع عن المتعلمين فيها بدرجة أو درجتين.

وقال علي بن القاسم: هو مجنون الكلام تارة تبدو لك منه بلامحة قمر، وتارة يلتفاك يعني باقل تحريف كبير في المعاني واحالة في الوضع وغلط في السجع وشروع عن العلیع.

وقال ابن المرزبان: هو كثير السرقة سوء الانفاق رديء القلب فروقة^(١) في ابراده هزيمته قبل هجومه وإحجامه أظهر من إقدامه.

وقال الصابي: هو مجتهد غير موفق «وفاصل غير منطبق»^(٢) وقال علي ابن جعفر: هو يكذب فقسه بحسن الظن في البلاغة وطبعه تصدق عنه بالتلخّف، فهو يشنن اللفظ ويحلل المعنى فأما شينه اللفظ فالجفوة والغلوطة والاعلال والتجاهلاة. وأما حالاته فالبعاد عن حومة القصد والإرادة والعجب أنه يحفظ الطمّ والرم^(٣) من الشر والنظم ثم اذا ادعاهما يقع دونهما سقوطاً أو يتتجاوزهما فروطاً^(٤) وهذا مع الكبير المعموق والتسيع الظاهر والذرعى العارية من البينة العادلة.

وقال أحمد بن محمد: بللي ابن عباد في هذه الصناعة بأشياء كثيرة

(١) رجل فروقة شديد الفرق . يفتحين . وهو الفزع.

(٢) غير منطبق أي غير بلطنة النطق.

(٣) الضم والرم: المدد الكبير يقال جاء بالضم والرم والطم في الاصل الماء الكبير أو ما ساقه الماء من غناء، والرم الشري.

(٤) الفروط التقدم.

عليه لا له، فأول ما بلي به أنه فقد الصببع وهو العمود والثاني العادة وهي المواتية^(١) والثالث الشغف بالجاسي^(٢) من اللفظ وهو الاختيار الرديء والرابع تبع الوحشى وهو الضلال المبين والخامس الذهاب مع اللفظ دون المعنى والسادس استكراه المقصود من المعنى وللقطط على النبوة والسابع التعاظل^(٣) المجهول بالاعتراف والثامن ألف الرسوم الفاسدة من غير تصفح ولا فحص والتاسع قلة الاتعاظ بما كان . لثقة الواقعه في النفس — من الغائب ، والعاشر تنفيق المتعاع بالاقدار في سوق العز ، وهذه كلها سبل الضلاله وطرق الجهاله^(٤) .

ونعتقد أن شيئاً من هذا الكلام أو هذه التعوت لا ينطبق على شيء من شعر الصاحب وإن كان ينطبق بعضه على شيء من ثره المسجوع من أمثلة ما روى أبو حيان نفسه شيئاً منه أوردهناه فيما تقدم وقلنا رأينا فيه وهذا أيضاً على فرض التسليم بصحة ما أورد من السجع المتتكلف وللفظ الغريب والحوشى وعلى فرض التسليم ايضاً بصحة صدور هذه الأحاديث والأراء عن ذكر أسماءهم !

ولا يستبعد الاستاذ أحمد أمين في مقدمته التي كتبها للإمتناع والمؤانسة أن يكون أبو حيان قد تردد فيه واحتى في أشياء لم تخر في مجلس الوزير فقد عرف عنه أمثلة من هذا القبيل وقد اتهمه العلماء من قبل ومنهم ابن أبي

(١) المواتية أي المساعدة المعينة.

(٢) الجاسي: العجاف الصلب.

(٣) التعاظل: التعقيد وللتعاظل معان أخرى اكثرها مناسبة هنا التعبير بعدم تنسيق الكلام ووضع كل كلمة في موضوعها.

(٤) الامتناع والمؤانسة ١٥٢.

الحاديده بأنه وضع الرسالة المشهورة المعروفة إلى أبي عبيدة على لسان أبي بكر وعمر في حق علي بن أبي طالب ولعل هذا التزوير كان من ضمن الاسباب التي دعته أن يرجو أبا الوفاء . وهو الذي كتب له ما جرى بينه وبين الوزير أبي عبدالله العارفي . في أن يكون الكتاب سرا فإنه ألف الكتاب في حياة الوزير وخشي أن يطلع عليه الوزير فيعلم مقدار ما تزيره^(١).

لقد جمع الفائلون في هذه الكلمات أو جمع لهم أبو حيان جميع عيوب الفن الأدبي وصيغوها على أدب الصاحب الذي لم ييراً ولا سبما بعض نثره منها ولكن تجريد هذا الأدب من كل مزية والصاف كل نقص به محال في مجال النقد التزير الخالص من نزعات الكيد والانتقام التي سمحت آراء أبي حيان وروايات أبي حيان.

ذلك أن القول المطبوع والأدب الصافي والشاعرية المرهفة كل ذلك واضح المعالم في أدب الصاحب لكل منصف يطلع على شعره واكثر نثره.

لقد كان الصاحب يرتجل الشعر فتخال لفطر اتقانه وصفاء ديباجته أنه شعر معذ مهذب أعاد صاحبه النظر فيه لو لا أن روانه سمعوا هذا الشعر وأخبروا عن ارتجاله في مناسباته بل لقد كان الصاحب يسبقهم إلى أشطتهم وقوافيهم التي ينشدونها في حضرته ف تكون تلك الأسطر هي عين ما قالوا ومن أمثلة ذلك ما حدث أبو الرجاء الضبي الشطري نجني العروضي

(١) انظر مقدمة، الامتعة والمؤانسة بقلم الاستاذ أحمد أمين ص: ف.

الشاعر الأهموازي في قوله: قدم علينا الصاحب بن عباد في السنة التي جاء فيها فخر الدولة ولقيه الناس ومدحه الشعراء فمدحه بقصيدة قلت فيها:
إلى ابن عباد أبي القاسم الصا حب اسماعيل كافي الكفاهة
فقال الصاحب: قد كنت والله أشتتهي أن تجتمع كننيتي واسمي ولقبى
واسم أبي في بيت:

قال أبو الرجاء فلما انتهيت إلى قولني فيها:
ويشرب الجيش هنئاً بها

قال الصاحب: يا أبا الرجاء: أمسك فأمسكت فقال: ويشرب الجيش
هنئاً بها.

قال الصاحب: يا أبا الرجاء: أمسك فأمسكت فقال:
ويشرب الجيش هنئاً بها من بعد ماء الري ماء الصراء^(١)
مكذا هو؟ قلت: نعم قال: أحسنت: قلت: يا مولاي أحسنت أنت
عملت أنا هذا في ليلة وأنت عملته في لحظة^(٢).

وروى عن الهمذاني أن الصاحب أتى بغلام مثاقف^(٣) فلعب بين يديه
فاستحسن صورته وأعجب بمقتنته فقال لأصحابه: قولوا في وصفه فلم
يصنعوا شيئاً فارتجل الصاحب!

(١) الصراء نهر بالعراق.

(٢) معجم الادباء ٢٥٤/٦.

(٣) المثاقفة الملاعة بالسلاح.

منافق في غاية الحذق
فاق حسان الغرب والشرق
بالبدر اذ يلعم بالبرق^(١)
شبهته والسيف في كفه

واتحل أحد المتشاعرين بعض شعر الصاحب ليمدحه به فبلغ
الصاحب ذلك فقال: أبلغوه عنى:

سرقت شعرى وغيرى
يضم نبئه ويجزع
يكدرأسا وأخدع
فسارق المال يقطع
سوف أجزيك صفعاً

وكتب إليه أبو منصور الجرجاني:
فل للوزير المرتجمى
كافي الكفأة الملتجمى
انسي رزقت ولدا
لا زال في ظلك ط
نسمه وكنته
كالصبح إذ تبلجا
ل المكرمات والمحاجا
مشرفًا مترجا

فوق الصاحب تحت هذه الأبيات:

منته، منته
شمس الضحى، بدر الدجى
ونته «أبا الرجال»
نسمه «محسناً»

وأهدى العميري قاضي قزوين إلى الصاحب كتاباً وكتب معها:

العميري عبد كافي الكفأة
ومن اعتد في وجوه القضاة

(١) بنيمة الدهر ٢٠٢ / ووفيات الأعلماء ١٢٢٥ / ٢.

مفعمات من حسنها متربعات

خدم المجلس الرفيع بكتب

فوق الصاحب تحتها:

ورددنا لوقتها الباقيات

قد قبلنا من الجميع كتابا

قول «خذ» ليس مذهبني قول «هات»

لست أستغنى الكثير فطبععي

وكتب الصاحب إلى أبي هاشم العلوي وقد أهدى إليه في طبق فضة

عطراً:

يستبط الآشراق من آشراقكَا

العید زارك نازلاً برواقكَا

ما يسرق العطار من أخلاقكَا

فأقبل من الطيب الذي أهديته

فاضف به طبقاً إلى أطباقكَا

والظرف يوجب أخذه مع ظرفه

ولما أتت الصاحب البشارة بسبعين عباد بن علي الحسن ولم يكن

للصاحب ولد غير أمه وكان قد زوجها من أبي الحسن علي بن الحسين

الحسن الهمذاني وكان شاعراً أدبياً بدليعاً أنشأ الصاحب يقول:

أقبلت عند العشي

أحمد الله لبشرى

موسبط للنبي

إذ حبانى الله سبطا

بغلام هاشمي

مرحباً ثمت أهلا

حسني صاحبي

بنروي على روى

ثم قال:

قد صار سبط رسول الله لي ولدا

الحمد لله حمداً دائماً أبداً

والحقيقة أن كثيراً من هذه الأشعار المرتجلة لا يصور الفحولة التي يتصف بها شعر الصاحب فإن فيها من بساطة التعبير ومن قرب المعاني ما يهبط بها كثيراً عن درجات شعره الرائق الممتاز ولكن موقف الارتجال وغزارة البداهة من غير اعداد أو تعبير ترقى به إلى درجة الشعر الذي نجد فيه عذوبة الصاحب وسماحة طبعه حتى لقد يكون في الامكان القول بأن الصاحب لو أراد أن يكون كل كلامه على هذا النمط من الشعر لم يتأب عليه القول ولم يستعن عليه شيء يربده، فقد أصبح القريض طوع بنائه يكاد يسيل على عذبات لسانه.



أ. علاء الدين شوقي

www.lisanarb.com

الفهرس

١١	الصاحب ابن عباد:
١٢	مولده ونشأته:
١٣	تسمية الصاحب:
١٤	ذكر أساندته:
١٧	عصر الصاحب:
٢١	بنو بويه:
٢٣	فتح العراق:
٣٩	أدببني بويه:
٤٥	أخلاق الصاحب:
٥٢	كتابة الصاحب:
٥٣	الأسلوب المثالي:
٥٤	أنواع الكتاب:
٥٥	مكانة الصاحب:
٥٦	رأي في القرآن:
٥٧	ولع الصاحب بالسجع:
٥٨	صورة هزلية:
٦٠	مخازي الصاحب:
٦١	نوادر مجنونة:
٦٣	أحاديث الصاحب:
٦٤	رسالة أبي راغب العتبى إلى الصاحب:
٦٨	نوادر الصاحب:
٦٩	عودة إلى مخازي الصاحب:

٧٠	الصاحب وبنو المنجم:
٧١	علم الصاحب كما يروي أبو حيان:
٧٢	إدعاءات الصاحب:
٧٢	الصاحب والعرض:
٧٣	الصاحب والنحو:
٧٤	سخف الصاحب:
٧٤	الصاحب وأهل القصص والحديث:
٧٦	ابن العميد وابنه في نظر الصاحب:
٧٧	تفاخر الصاحب:
٧٧	المسيني والصاحب:
٧٨	كلام بذيء:
٧٨	التقبع عند الصاحب:
٧٩	إنكار الجبر:
٧٩	الصاحب وبنو ثوابة:
٧٩	كلام المجانين:
٨٠	الابتلاء بالصاحب:
٨١	فلسفة الحق:
٨٢	انقطاع الصاحب:
٨٢	حقد أبي حيان على الصاحب:
٨٥	رحمة الصاحب:
٨٩	بديهته وحضور جواهه:
٩٢	سماحة الصاحب:
٩٧	العدل في الرضا والسلخط:
١٠٦	الصاحب الأديب:
١٠٨	الصاحب الناشر: لفظه ومعناه . حصر الصنعة:

١١١	ارتحاله الكلام البديع:
١١٥	احتمال الافعال من أبي حيان:
١١٧	نماذج من أدبه الكتابي:
١١٧	أدب الرسائل:
١٢١	أدب المهد:
١٢٤	تقوى الله:
١٢٤	كتاب الله:
١٢٥	سنة رسول الله:
١٢٥	اجماع المسلمين:
١٢٦	القياس والاجهاد:
١٢٧	الشوري:
١٢٧	أخلاقي القاضي ومسؤوليته:
١٢٨	العدل بين الخصوم:
١٢٩	اختيار الأعوان:
١٢٩	الفحص عن الشهود:
١٣٠	أموال اليتامي:
١٣٠	المواريث:
١٣١	الرجوع الى الحق:
١٣١	زواج الأيمان:
١٣١	رعاية الأوقاف:
١٣٢	انظار المعاشرين:
١٣٢	ضرب السكل (العملة):
١٣٢	درء الحدود بالشبهات:
١٣٤	فقرات من كلامه تجري مجرى الأمثال — توقيعاته:
١٣٧	طبيعة شعر الصاحب: